



الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
ISLAMIC UNIVERSITY OF MADINAH

مجلة الجامعة الإسلامية

لغة العربية وآدابها

مجلة علمية دورية محكمة

يوليو - سبتمبر ٢٠٢٣ م

العدد : ٩



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

معلومات الإيداع

في مكتبة الملك فهد الوطنية

النسخة الورقية :

رقم الإيداع ١٤٤٣/٣٢٨٣ بتاريخ ١٤٤٣/٠٤/٠٢ هـ

ردمد: ٩٠٧٦-١٦٥٨

النسخة الإلكترونية :

رقم الإيداع ١٤٤٣/٣٢٨٤ بتاريخ ١٤٤٣/٠٤/٠٢ هـ

ردمد: ٩٠٨٤-١٦٥٨

الموقع الإلكتروني للمجلة

<http://journals.iu.edu.sa/ALS/index.html>

ترسل البحوث باسم رئيس تحرير المجلة إلى البريد الإلكتروني :

asj4iu@iu.edu.sa

البحوث المنشورة في المجلة تعبر عن آراء الباحثين

ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة

جميع حقوق الطبع محفوظة للجامعة الإسلامية

هيئة التحرير

أ.د. عبد الرحمن بن دخيل ربّه المطرفي

(رئيس التحرير)

أستاذ الأدب والنقد بالجامعة الإسلامية

د. إبراهيم بن صالح العوفي

(مدير التحرير)

أستاذ النحو والصرف المشترك

بالجامعة الإسلامية

أ.د. عبد العزيز بن سالم الصاعدي

أستاذ النحو والصرف بالجامعة الإسلامية

د. إبراهيم بن محمد علي العوفي

أستاذ اللغويات المشترك بمعهد تعليم اللغة

العربية بالجامعة الإسلامية

د. مبارك بن شتيوي الحبشي

أستاذ البلاغة المشترك بالجامعة الإسلامية

أ.د. محمد بن صالح الشنطي

أستاذ الأدب والنقد بجامعة جدرا-الأردن

أ.د. علاء محمد رافت السيد

أستاذ النحو والصرف والعروض

بجامعة القاهرة

أ.د. عبد الله بن عويقل السلمي

أستاذ النحو والصرف

بجامعة الملك عبد العزيز بجدة

قسم النشر: د. عمر بن حسن العبدلي

الهيئة الاستشارية

أ.د. محمد بن يعقوب لركستاني

أستاذ أصول اللغة بالجامعة الإسلامية

أ.د. محمد محمد أبو موسى

أستاذ ورئيس قسم البلاغة بكلية اللغة

العربية جامعة الأزهر

أ.د. توكي بن سهو العتيبي

أستاذ النحو والصرف بجامعة الإمام محمد

بن سعود الإسلامية

أ.د. عبد الرزاق بن فراج الصاعدي

أستاذ اللغويات بالجامعة الإسلامية

أ.د. سالم بن سليمان الحماش

أستاذ اللغويات في جامعة الملك عبدالعزيز

أ.د. محمد بن مريسي الحارثي

أستاذ الأدب والنقد في جامعة أم القرى

أ.د. ناصر بن سعد الرشيد

أستاذ الأدب والنقد بجامعة الملك سعود

أ.د. صالح بن الهادي رمضان

أستاذ الأدب والنقد . تونس

أ.د. فايز فلاح القيسي

أستاذ الأدب الأندلسي في جامعة

الإمارات العربية المتحدة

أ.د. عمر الصديق عبدالله

أستاذ التربية وتعليم اللغات بجامعة أفريقيا

العالمية-الخرطوم

د. سليمان بن محمد العبيدي

وكيل وزارة الإعلام سابقاً

قواعد النشر في المجلة (*)

- أن يكون البحث جديداً؛ لم يسبق نشره.
- أن يتسم بالأصالة والجدة والابتكار والإضافة للمعرفة.
- ألا يكون مستقلاً من بحوثٍ سبق نشرها للباحث.
- أن تراعى فيه قواعد البحث العلميّ الأصيل، ومنهجيّته.
- أن يشتمل البحث على:
 - عنوان البحث باللغة العربية وباللغة الإنجليزية.
 - مستخلص للبحث لا يتجاوز (٢٥٠) كلمة؛ باللغتين العربيّة والإنجليزية.
 - كلمات مفتاحيّة لا تتجاوز (٦) كلمات؛ باللغتين العربيّة والإنجليزية.
 - مقدّمة.
 - صلب البحث.
 - خاتمة تتضمّن النتائج والتوصيات.
 - ثبت المصادر والمراجع باللغة العربية.
 - رومنة المصادر العربية بالحروف اللاتينية في قائمة مستقلة.
- في حال (نشر البحث ورقياً) يمنح الباحث نسخة مجانية واحدة من عدد المجلة الذي نُشر بحثه فيه، و (١٠) مستلّات من بحثه.
- في حال اعتماد نشر البحث تؤوّل حقوق نشره كافة للمجلة، ولها أن تعيد نشره ورقياً أو إلكترونياً، ويحقّ لها إدراجه في قواعد البيانات المحليّة والعالمية - بمقابل أو بدون مقابل - وذلك دون حاجة لإذن الباحث.
- لا يحقّ للباحث إعادة نشر بحثه المقبول للنشر في المجلة - في أي وعاء من أوعية النّشر - إلّا بعد إذن كتابي من رئيس هيئة تحرير المجلة.
- نمط التوثيق المعتمد في المجلة هو نمط (شيكاغو).

(*) يرجع في تفصيل هذه القواعد العامة إلى الموقع الإلكتروني للمجلة: <http://journals.iu.edu.sa/ALS/index.html>

محتويات العدد

م	البحث	الصفحة
	(نفي ما وجب للأول عن الثاني)	
(١)	أدواته وأساليبه النحوية وأبعاده الدلالية د. محمد بن جزاء بن زقحان الرويس العتيبي	٩
(٢)	ما أجراه النحاة من الألفاظ مُجرى القَسَم — دراسة نحويّة د. حسان بن نور بن عبد القادر بتوا	٥٥
(٣)	نسبة الشّواهد الشّعريّة في كتاب سيبويه د. أحمد بن عتيق بن راضي الحربي	١٤٥
(٤)	جهودُ عليّ بن سلطان الحَكَميّ في خدمة اللّغة العربيّة د. علي بن سعيد العواجي	٢٢٣
(٥)	صور من تكلف النحويين في شرح التسهيل لابن مالك دراسة تطبيقية تحليلية د. عبد الله بن عثمان بن محمد اليتيمي	٢٨٣
(٦)	المجانسة الصوتية في ظاهرة الإعراب بالحروف د. محمود رجاء حسن نوافلة د. رائدة علي مراشدة	٣٣١
(٧)	وظيفة الاعتبار في كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ سعيد بن عبد الله القرني	٣٧١
(٨)	المجنون ناقدًا، النقد الأدبي في رواية العصفورية لغازي القصيبي _ دراسة استقرائية تحليلية د. صالح بن عويد الحربي	٤٣٥

م	البحث	الصفحة
(٩)	راهنُ الأدب الرّقمي في المملكة العربيّة السّعوديّة دراسةٌ وصفيةٌ تحليليّة د. أحمد بن عيسى الهلالي	٤٨١
(١٠)	جائحةُ كورونا في رواية "سيرة حمى" مقاربة إيكولوجية أمل بنت محسن بن عواض القشامي العتيبي	٥٣٥
(١١)	الاستغراب في الرواية السّعودية : رواية العصفورية أنموذجاً د. عادل بن مصيلح المظيري	٥٩٩
(١٢)	الصُّورة البصريّة في القصّة القصيرة بشرى خلفان أنموذجاً د. شيمة بنت محمد فالح الشمري	٦٤٧
(١٣)	تحوّلات التّجربة الشّعريّة في العُنْوانِ والأنا عند الشّاعرِ مُحمّد الشّدويّ د. فهد بن مرسي بن محمد البقمي	٦٧٩
(١٤)	التداخل بين المذكرات والرحلة في كتاب "من ذكريات مسافر "لمحمد عمر توفيق" مقاربة إنشائية" د. طنف بن صقر العتيبي	٧٣٣
(١٥)	الفراغات النّصيّة في ضوء نظريّة التّلقّي دراسة تطبيقيّة في شعر محمد الثّبيتي د. ولاء قسم السيد بشير عقيد	٧٨٣

وظيفة الاعتبار في كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ

The Function of Consideration in Kitāb Al-I'tibār by Osama bin Munqith

سعيد بن عبد الله القرني

أستاذ الأدب والنقد المشارك بقسم اللغة العربية بجامعة بيشة

البريد الإلكتروني: saq424@gmail.com

المخلص

يُعنى هذا البحث بدراسة "كتاب الاعتبار" لأسامة بن منقذ، من خلال رؤية جديدة تختلف عن الدراسات السابقة التي تناولت الكتاب بالدراسة وركزت على السيرة من حيث ما تضمنته من جوانب تاريخية واجتماعية، فركز البحث على موضوع الاعتبار ذاته وصياغة مفهومه بوصفه الغاية التي ألف أسامة بن منقذ كتابه من أجلها، إذ كان هدفه الأساسي أن يستخلص العبر والعظات من الأحداث والوقائع التي يعرضها لتكون دروساً يستفيد منها القارئ والذات الكاتبة معاً.

وقد وجه البحث عنايته إلى تتبع المواقف الاعتبارية، وتأثير الثقافة الدينية في صياغة مفهوم الاعتبار، وصلة الاعتبار بالقارئ والذات وتحوّل الاعتبار في السيرة من موضوع وعظمي خالص إلى موضوع أدبي، وذلك من خلال الاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي.

وخلص البحث إلى نتائج مهمة، منها أن كتاب الاعتبار يعد وثيقة أدبية نادرة من أهم كتب السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم، وأن موضوع الاعتبار هو الركيزة الأساسية والبؤرة المحورية في كتابة سيرة أسامة بن منقذ.

الكلمات المفتاحية: ابن منقذ، الاعتبار، سيرة ذاتية، رؤية جديدة.

Abstract

This research studies Kitāb Al-I'tibār (The Book of Consideration) by Osama bin Munqidh, through a new vision that differs from previous studies that focused on autobiography in terms of its historical and social aspects. So, the research focused on the theme of "consideration" (al-I'tibār) itself and the formulation of its concept for being the reason why Osama bin Munqidh wrote this book. His main goal was to draw admonitions and wisdom from the events and facts he presented in order to be lessons that will benefit the reader and the writer. The research focused on tracking the scenes worthy of consideration in the book and the impact of religious culture in formulating the concept of consideration, and the link between consideration and both the reader personality, and the transformation of consideration in autobiography from a sheer topic of admonition to a literary topic, relying on the descriptive analytical method. The research concluded that "Kitāb Al-I'tibār" is a rare literary document and one of the most important autobiography books in the earlier Arabic literature, and that the theme of consideration is the focal point and the cynosure in the work of Osama bin Munqidh.

Keywords: Bin Munqidh, I'tibār, autobiography, new perspective.

مقدمة

يُعَدُّ "كتاب الاعتبار" لأسامة بن منقذ من أهم السير الذاتية في أدبنا العربي القديم، وأكثرها طرافة وجدة وإثارة؛ فهو سيرة أدبية طريفة لأديب كبير، وفارس عظيم، ومقاتل شجاع، أبلى بلاءً حسناً في المعارك والحروب التي استهدفت بلاد المسلمين. واستطاع أسامة بن منقذ -من خلال سيرته- أن يصور الجوانب السياسية والاجتماعية والفكرية في عصره. وقد ركزت الدراسات التي تناولت "كتاب الاعتبار" على هذه الجوانب، وعلى فن السيرة من خلال الكتاب، ولكنها أغفلت أهم جانب من جوانب الكتاب وهو الاعتبار ذاته، الذي يُعَدُّ الغاية والهدف الأسمى الذي استهدفه المؤلف من كتابه، فهو لم يورد سيرته بما انطوت عليه من أحداث لذاتها، وإنما أراد منها أن ينفذ إلى العبر والعظات المستخلصة من تجارب حياته التي امتدت إلى تسعين عاماً.

ومن هنا فإن غاية هذا البحث تختلف عن الدراسات التي ركزت على الجوانب المشار إليها آنفاً، وتركز على دراسة موضوع "الاعتبار" في ذاته، فيتتبع المواقف الاعتبارية في السيرة، ووظيفة الثقافة الدينية في صياغة مفهوم الاعتبار، وصلة الاعتبار بالذات الكاتبة من ناحية، وبالقارئ من ناحية أخرى، وينفذ من ذلك إلى تحوّل الاعتبار من خلال السيرة في بنائها السردية إلى موضوع أدبي.

وقد حفز الباحث لدراسة هذا الموضوع أسباب عدة؛ أهمها:

- ١- ما يمثله "كتاب الاعتبار" من أهمية بوصفه من أهم كتب السير الذاتية في أدبنا العربي القديم.
- ٢- مكانة أسامة بن منقذ الأدبية بوصفه كاتباً مميزاً وشاعراً بارزاً، وفارساً مغواراً.
- ٣- عدم تركيز الدراسات التي تناولت "كتاب الاعتبار" على الموضوع الأساسي والمحوري الذي استهدفه المؤلف من كتابه وهو الاعتبار.

٤- إلقاء الضوء على صفحات مضيئة من تاريخنا المجيد.

وتكمن أهمية الموضوع في النقاط الآتية:

١- دراسة "كتاب الاعتبار" من زاوية محددة هي موضوع الاعتبار ومواقفه وأبعاده ومظاهره.

٢- تأطير مفهوم الاعتبار وقدرة أسامة بن منقذ على تحويله من موضوع وعظي خالص إلى موضوع أدبي.

٣- الوقوف على صلة الاعتبار بالذات الكاتبة وبالقارئ سواء المعاصر له أو من يأتي بعده.

٤- الوقوف على الآثار الإيجابية والقيم الدينية والأخلاقية والتربوية المستخلصة من الحوادث والمواقف الاعتبارية.

وقد تناولت دراسات عديدة كتاب (الاعتبار) من جوانب مختلفة، وأبرزها:

١- فن السيرة في الأدب الأيوبي - كتاب الاعتبار نموذجاً، أطروحة ماجستير، إعداد/ حازم فارس علي أبو شارب، كلية الآداب والعلوم، جامعة الشرق الأوسط، ٢٠١٩ - ٢٠٢٠م، وجاءت الرسالة في أربعة فصول تناولت تطور فن السيرة في الأدب الأيوبي دون أن تتطرق لموضوع الاعتبار ذاته.

٢- كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ، دراسة تحليلية، أطروحة ماجستير، براءة محمود السقرات، جامعة مؤتة، الأردن، وتشتمل الدراسة على خمسة فصول تمحورت حول فن السيرة، النزعة المناقبية، ومظاهر الحضارة والعمران الاجتماعي، ومستويات الأداء اللغوي في كتاب الاعتبار، ولم تتطرق الدراسة كذلك إلى موضوع الاعتبار.

٣- كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ، دراسة في شعرية النص، أطروحة ماجستير، إعداد أحمد عبد العظيم محمد، كلية الألسن، جامعة عين شمس، ٢٠٠٥م،

وقد ركزت الدراسة على القيمة الفنية لكتاب الاعتبار بوصفه إرهاباً بفن القصة ومن حيث انتماءه إلى السرد التراثي.

٤- رسالة بعنوان (أسامة بن منقذ وآثاره الأدبية والنثرية)، إعداد د. حسن عباس، وركزت على كتاب الاعتبار من حيث قيمته التاريخية.

٥- السيرة الذاتية في كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ، حسين علي رشيد، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك الأردن ٢٠١٥

وتوجد أبحاث في دوريات علمية، ومنها:

١- قراءة تحليلية في كتاب الاعتبار، إعداد د. رغدة علي الزيون، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، المجلد السابع، ربيع ثان ١٤٣٢هـ - نيسان ٢٠١١م، وقد اهتم هذا البحث بالكشف عن القيمة التاريخية والسياسية والأدبية والعلمية لكتاب الاعتبار.

٢- الخطاب الرحلي في كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ، بحث منشور في مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، عام ٢٠٢٠ للباحثين بدور أحمد الغامدي، وصلوح مصلح السريحي، وقد ركز البحث على كتاب الاعتبار بوصفه أنموذجاً لأدب الرحلات.

٣- الاعتبار لأسامة بن منقذ أنموذجاً لكتابة السير الذاتية العربية القديمة، جليلة طريطر، حويات الجامعة التونسية ١٩٩٥.

ومما سبق يتبين أن الدراسات السابقة لم تتناول كتاب الاعتبار من الوجهة التي يتناولها هذا البحث، ولم تتطرق إلى موضوع الاعتبار في ذاته الذي يعدّ الغاية من إنشاء السيرة على الصورة التي جاءت فيها، وهو ما يكسبه أهمية خاصة لتفرده في البحث في موضوع الاعتبار وما يتضمنه الكتاب من مواقف اعتبارية وصلة الاعتبار بالقارئ والذات الكاتبة.

اعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي الذي يُعنى بوصف الظاهرة وتحليلها واستقرائها واستخلاص النتائج منها؛ إذ هو من أكثر المناهج العلمية استخداماً، فالباحث العلمي يستطيع عند استخدامه أن يدرس ظاهرة أو إشكالية بحثه بدقة كبيرة، وأن يعرف مسببات حدوثها، كما أنه يساعده على المقارنة بين إشكالية البحث والإشكاليات المشابهة لها، ثم يحلل النتائج التي يحصل عليها من هذه المقارنة، وقد اشتمل البحث على تمهيد تناول نشأة أسامة بن منقذ وحياته ومفهوم الاعتبار، وعلى خمسة مباحث وفق الإجمال التالي:

المبحث الأول:

تناول المواقف الاعتبارية التي دوّنها أسامة بن منقذ في سيرته، سواء تلك المواقف التي شاهدها أو شارك فيها.

المبحث الثاني:

تناول بيان تأثير الكتابة السردية في سيرة أسامة بن منقذ على تحريك صورة القارئ الراغب في الاعتبار من الحوادث والوقائع، وكيف نجح أسامة في أن يقيم علاقة قوية بينه وبين القارئ لسيرته.

المبحث الثالث:

تناول توجه أسامة بن منقذ إلى موضوع الاعتبار الذي قصده لعقد صلة بين الاعتبار وبين ذاته، ووضح المبحث كيف قدم رؤيته وتصوره للاعتبار من وجهة نظره، بوصفه المعنيّ المباشر به.

المبحث الرابع:

تناول نشأة أسامة بن منقذ الدينية، واهتمام والده بتربيته تربية دينية قويمّة، وأثر هذه التربية الكبير في تدينه، وقوة إيمانه، واتساع ثقافته الدينية التي وجهته إلى مقصد الاعتبار وأسهمت - بشكل كبير - في صياغة مفهومه.

المبحث الخامس:

تناول بيان قدرة السيرة في بنائها السردية على أن تحوّل الاعتبار إلى موضوع أدبي، وتوضح كيف اقترب أسامة ابن منقذ فيها من الفن القصصي من خلال توظيف التقنيات السردية، وقدرته على استعراض أحداث سيرته في سرد أدبي ممتع يقترب من الأسلوب القصصي.

تلت ذلك أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة فثبت المصادر والمراجع.

تقديم

نشأته وحياته:

هو أسامة بن مرشد بن علي بن المقلد بن نصر بن منقذ الكناني، الملقب بمؤيد الدولة^(١). ولد سنة ٤٨٨هـ، ونشأ في رعاية أبيه مجد الدين مرشد، وعمه عز الدين سلطان، وتلقى العلم على أبرز شيوخ زمانه، أمثال ابن المنيرة محمد النحوي، وأبي عبد الله الطليطلي، والمحدث علي السنبسي، فدرس عليهم اللغة والنحو والأدب والقرآن والحديث واهتم بالاطلاع على التاريخ والسير، وتعلّم على أبيه علم الفلك والنجوم ومواقعها، وخبر أساليب القتال والصيد، حتى صار فارساً من أشجع الفرسان، يتصف بالشجاعة والإقدام وركوب الأخطار، فخاض المعارك والحروب، ومن شدة بأسه أنه هجم على الأسد يوماً في سهل الغاب، فغلبه واحتزّ رأسه.

وبعد وفاة أبيه سنة ٥٣١هـ غادر أسامة شيزر متوجهاً إلى دمشق التي كانت آنذاك تحت حكم السلاجقة، فأقام فيها ثماني سنين، صحب فيها عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود ووزير الأتابكة البوريين على دمشق معين الدين أئرج؛ ويبدو أن علاقة أسامة بهذا الوزير قد ساءت، فقرر الرحيل إلى مصر سنة ٥٤٠هـ في عهد الحافظ لدين الله الفاطمي، وظل بها تسعة أعوام ثم غادرها عائداً إلى البلاط النوري، في دمشق. وعاش بعدها في كنف صلاح الدين الأيوبي وظل بها حتى توفي سنة ٥٨٤هـ بعد حياة طويلة حافلة عاشها في جهاد متصل وفروسية منقطعة النظير حتى ليُعدّ واحداً من أبطال الإسلام، وفرسانه المعدودين.

(١) انظر: الأصفهاني، عماد الدين بن محمد "خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام".

تحقيق شكري فيصل، العراق، المجمع العلمي العراقي، ١: ٤٩٧.

مؤلفاته:

ألف أسامة بن منقذ عدداً كبيراً من المؤلفات تجاوز عددها ثلاثين مؤلفاً، منها "المنازل والديار"، و"لباب الآداب"، و"البديع في نقد الشعر"، و"القضاء"، و"أزهار الأنهار"، و"القلاع والحصون"، و"أخبار النساء"، و"النوم والأحلام"، و"العصا"، و"مناقب عمر بن عبد العزيز"، و"التجارب المربحة والمساعي المنجحة"، و"البدرين"، وديوان شعر، فضلاً عن كتاب "الاعتبار" الذي يعد أهم كتبه وأكثرها جدة في موضوعه، بل يعد من أهم السير الذاتية في الأدب العربي القديم، وقد دَوَّنه في دمشق، في عهد صلاح الدين الأيوبي، وهو ابن تسعين سنة (٥٧٨هـ) كما ذكر في خاتمته، ويشتمل الكتاب على مذكراته في حروب الإفرنج، وما تقدمها من فصول حياته منذ نشأته في قلعة شيزر التي ملكها بنو منقذ في عهد صالح بن مرداس الذي خلف الحمدانيين في حلب.

ويقع الكتاب في الأصل في ثلاثة أقسام:

فالقسم الأول يحفل بأخبار الوقائع والحروب، وهو أغناها وأكثرها قيمة وأجدرها بالمراجعة.

والقسم الثاني يتعلق بأخبار الصيد والقتل والجوارح، وهو حافل بكل ما هو مثير. والقسم الثالث ملحق خصصه لبعض حكايات الصالحين والزهاد، وفيه أيضاً صور من مشاهد الصيد التي حضرها مع أبيه في سهل الغاب القريب من شيزر.

أهمية كتاب الاعتبار وقيمه الأدبية:

مما يكسب كتاب الاعتبار أهمية أن أسامة دَوَّنه وهو في التسعين من عمره، بعد أن اتسعت تجربته في الحياة، واكتمل نضجه الفكري، وطالت معاناته، وتضخمت ذكرياته، على أن قيمة الكتاب تبدو في حسن تصويره لمجتمعه الذي تعرض للغزو الصليبي، ففي هذا الجانب يبدو الكتاب وثيقة حية من وثائق حروب الإفرنج التي

استمرت زمناً طويلاً.

ولم يكن أسامة بن منقذ مؤرخاً يسجل أخبار المعارك ويؤرخ لها صنيع المؤرخين، «ولكنه كان يصور عن طريق السرد الحكائي واستحضار الوقائع، ويقف عند الصور العميقة المؤثرة منها، وما كان يقع لهم داخل بيوتهم، وفي مواطن جدّهم ولهوهم، وما كانوا يقولونه لأنفسهم وهم يواجهون الموت أو وهم يعاملون هذا العدو الغريب...» وفي الكتاب من وصف أحوال الحياة والناس آنذاك في بلاد الشام خاصة وصور العادات في الأفراح والأحزان فيها، وصور الطبيعة في بعض مناطقها الشمالية، ما يجعله وثيقة اجتماعية أيضاً»^(١).

ونظراً لما يمثله "كتاب الاعتبار" من قيمة أدبية وتاريخية واجتماعية، فقد احتفى به الغربيون، وترجموه إلى لغات عديدة، منها الفرنسية والإنجليزية والألمانية.

دوافع تأليف "كتاب الاعتبار":

ثمة دوافع عديدة جعلت أسامة بن منقذ يوجه دفعة كتابه إلى موضوع "الاعتبار"، منها ما تعرض له في بداية حياته من الغربة الاضطرارية التي فرضها عليه عمه، وقد عبّر عن هذه التجربة فقال: «قام عمي نصف الليل وطلبني وأمر من أخرج لي مركوباً، وأمرني بالركوب، وقال: أريد أن تجيء معي إلى موضع سماه خارج شيزر في شغل، فركبت معه حتى أبعديني عن شيزر، ثم قال لي: يا ابن أخي، شيزر لك فهبها لي، فوالله ما بقيت أقدر على مساكنتك، ولم يأخذني في هذه الليلة نوم من شدة فكري فيك»^(٢).

وهكذا خرج أسامة من بلدته شيزر منفياً طريداً سنة ٥٣٥هـ، فكان لذلك أبلغ

(١) نفسه، ٢٠.

(٢) ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد "بغية الطلب في تاريخ حلب". تحقيق سهيل زكار (ط١، بيروت: دار الفكر)، ٣: ١٣٦٤.

وظيفة الاعتبار في كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ، سعيد بن عبد الله القرني

الأثر في تعميق إحساسه بالمرارة والإحباط والوحدة، وتضاعفت هذه الأحاسيس في نفسه بعد أن فقد كثيراً من أهله وذويه نتيجة الزلزال الذي ضرب شيزر فدمرها وقضى على سكانها، ومن المحن التي تعرض لها كذلك موت ولده أبي بكر الذي رثاه بقصائد عديدة، خصص لها باباً في ديوانه، منها قوله^(١):

لعمرك ما ينسيني الدهر روعي بفقد أبي بكر حياتي، ولا يُسلي
خشيتُ عليه اليُتم بعدي، فليتنى رُميت بما أخشى، ولم أُرَمْ بالثُكل

وكان للحياة الطويلة التي عاشها أسامة أثر واضح في زيادة إحساسه بوطأة الزمن وثقل الأيام، فضغفت قوته، ووهن جسده، وعبر عن ذلك فقال: «ولم أدر أن داء الكبر عامٌّ، يعدي كل من أغفله الحِمام، فلما توقَّلت^(٢) ذروة التسعين، وأبلاني مرُّ الأيام والسنين، صرت كجواد العلاف، لا الجواد المتلاف، ولصقت من الضعف بالأرض، ودخل من الكبر بعضي في بعض، حتى أنكرت نفسي، وتحسَّرتُ على أمسي»^(٣). فقد كانت الكتابة في هذه المرحلة المتقدمة من العمر شكلاً من أشكال التنفيس والنفث أراد بها الكاتب معالجة ذلك الإحساس ومغالبة الوهن والضعف الذين شعر بهما مع تقدّم الزمن.

زد على ذلك ما تعرض له المجتمع الإسلامي في عصر أسامة من حروب وفتن

(١) ابن منقذ، أسامة بن مرشد، "الديوان". تحقيق أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، (بيروت: منشورات بعلبكي)، ٣٠٤.

(٢) التوقُّل: الإسراع في الصعود.

(٣) ابن منقذ، أسامة بن مرشد بن علي بن منقذ الكناني، "كتاب الاعتبار - مذكرات أسامة بن منقذ في الحروب الصليبية مع ملحق في أخبار الصالحين ومشاهد الصيد والقص". وفق نصوصها وفصل فقرها وقَدَّم لها وعلّق عليها د. عبد الكريم الأشتر، (ط٢)، بيروت، المكتب الإسلامي، ٢٠٠٣م) ص ٢٠٧.

واضطراب سياسي وخلل اجتماعي، وما شاهده من حوادث ومفارقات إنسانية تجعله يقف، وهو في التسعين من عمره متأملاً، ومتدبراً، ومستخلصاً العبر والعظات؛ فكان عالم الكتابة لونا من ألوان الانكفاء على النفس والتعويض الذي ارتآه صاحب السيرة بديلاً عاطفياً.

مفهوم الاعتبار:

الاعتبار في اللغة مصدر مشتق من الفعل الثلاثي (عَبَّرَ)، وقد ورد في معاجم اللغة بمعان مختلفة، يهمني منها معنى العظة والعبرة. وفي الاصطلاح التدبر والنظر^(١)، وقيل الاعتبار هو الحالة التي يتوصل بها من معرفة المشاهد إلى غيره^(٢). وعرف الاعتبار أيضاً بالاعتاظ^(٣). والموعظة هي النصح والتذكير بالعواقب، والوعظ هو الأمر بفعل الخير وترك الشر.

الاعتبار في القرآن الكريم:

ورد الاعتبار في القرآن في مواضع عديدة، وهو «أسلوب تربوي قرآني يقوم على انتقال الذهن من قصة أو واقعة مشهودة، أو محكية إلى ما يقابلها أو ما يشابهها من أحوال الناس، فالاعتبار حالة ذهنية داخلية يتوصل بها المعتبر إلى حالة من الإيمان والتصديق والإذعان لقدرة الله»^(٤).

(١) الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب "بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز". تحقيق محمد

علي النجار، (القاهرة: لجنة إحياء التراث الإسلامي)، ٥: ٨٢.

(٢) المناوي (محمد عبد الرؤوف)، "التوقيف على مهمات التعريف". تحقيق محمد رضوان الداية،

(ط ١)، بيروت: دار الفكر المعاصر، ١٤١٠هـ)، ١: ٤٩٩.

(٣) نفسه، ٥٠١.

(٤) آمنة عبد الكريم فاحوري، "الدعوة إلى الاعتبار - دراسة قرآنية". أطروحة ماجستير، جامعة

النجاح الوطنية، (فلسطين: نابلس، ٢٠١٤هـ)، ١٠.

وقد تضمنت بعض الآيات القرآنية موضوع الاعتبار والدعوة إليه وحث ذوي الأبصار والأبصار على أخذ العبرة والعظة من المشاهدات والأحداث وقصص الأمم السابقة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَاتَّخِذُوا يَتَاوُلِي الْأَبْصَرِ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَرِ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾^(٣).

وقد أورد القرآن كثيراً من قصص الأنبياء والأمم السابقة لاستخلاص العبرة والعظة، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٤). فالاعتبار يحمل الإنسان على النظر والتفكير والتدبر، ويصره بمصارع الأمم، ويحذره من تحول النعم، وحلول النقم، والجري وراء مغريات الحياة الدنيا.

دلالات العنوان:

إن الوقوف على معنى العنوان وفهم دلالاته أمر مهم للاستدلال على محتوى النص وخلفياته، فالعنوان هو «المفتاح الذهبي للدخول إلى عالم النص»^(٥)، وهو بالنسبة للكتاب «كالاسم به يُعرف، وبفضله يُنداول، يُشار به إليه، ويدلُّ به عليه»^(٦). ومن جهة أخرى فهو عقد قرائي بين الكاتب والقارئ، وفعل متبادل وشعور أو موقف تأملي يتقاسمه الطرفان؛ فالعنوان يحمل رؤية المؤلف وكثيراً من ملامح

(١) الحشر، الآية ٢.

(٢) آل عمران، الآية ١٣.

(٣) النازعات، الآية ٢٦.

(٤) يوسف، الآية ١١١.

(٥) فوزي عيسى، "النص الشعري وآليات القراءة"، (الإسكندرية: دار المعرفة) ٢٠٠٦، ٥.

(٦) محمد فكري الجزار، "العنوان وسيموطيقا الاتصال الأدبي"، (القاهرة: الهيئة المصرية لعامة

للكتاب، ١٩٩٨م)، ٣٤.

فكره وتفكيره، وقد هدف أسامة في كتابه إلى أخذ العبرة والعظة، ومما يؤكد ذلك ما نجده من عبارات تحمل هذا المعنى وتتردد كثيراً بعد كل حادثة أو موقف يرويه، فيختمه بقوله: «وكان فيه معتبر وواعظ لولا نفاذ المشيئة»^(١).

فهو يورد المواقف لغاية الاعتبار والاتعاظ، ويحاول تفسيره لاستكناه الحكمة ولكنه يعجز فيرجعها دائماً إلى المشيئة الإلهية المتحكمة في كل شيء، ولذلك توافق عنوان الكتاب مع محتواه، فالهدف منه وعظي تعليمي، وأنه «رمى من وراء سيرته إلى تعليم أمثلة أدبية، وأورد فيها مواد يُرجى منها أن يعتبر القارئ بما حلَّ بغيره، وأن يستفيد منها»^(٢). ويبدو واضحاً أن تسمية الكتاب بـ "الاعتبار" وقعت من غلبة المساق الذي حكم أحاديثه في المجالس التي كان يُحدث بها سُمّاره في دمشق، في مراحل عمره الأخيرة، ويحكي لهم ما وقع منها، لاستخلاص العبرة والعظة^(٣).

(١) ابن منقذ، الاعتبار، ٤١.

(٢) نفسه، ١٩.

(٣) نفسه، ١٩.

المبحث الأول

المواقف الاعتبارية

يزخر كتاب الاعتبار بالمواقف الاعتبارية التي دَوَّها أسامة في سيرته، سواء تلك المواقف التي شاهدها أو شارك فيها.

وقد عكست هذه المواقف كثيراً من القيم الحميدة، والطبائع المختلفة، وانطوت أحياناً على تناقضات ومفارقات إنسانية، كما عكست هذه المواقف ما حفلت به حياته من تجارب وحوادث ومشاهد، ومنها:

مواقف الشهامة والنخوة:

حكى أسامة بعض المواقف التي تحمل دلائل الشهامة والنخوة ونبيل الأخلاق. ومن ذلك ما حدث معه هو نفسه حين خلع زنجياً تعرض للموت. يقول: «وعجيب ما رأيت في ذلك اليوم أن رجلاً من السودان الذين كانوا في العملة انهمز إلى علو داري، والرجال بالسيوف خلفه، فأشرف على القاعة من ارتفاع عظيم، وفي الدار شجرة نبق كبيرة، فقفز من السطح إلى تلك الشجرة، فثبت عليها، ثم نزل ودخل من كمّ مجلس قريب منه فوطئ على منارة نحاس، فكسرها ودخل إلى خلف رحل في المجلس اختبأ فيه وأشرف أولئك الذين كانوا خلفه فصحت عليهم واطلعت إليهم الغلمان دفعوهم ودخلت إلى ذلك الأسود فنزع كساء كان عليه وقال: خذه لك. قلت: أكثر الله خيرك ما أحتاجه، وأخرجته وسيّرت معه قوماً من غلماني فنجا»^(١).

هذا الموقف النبيل ينطوي على عبرة وعظة، هي ألا يتردد المرء في تقديم العون والحماية للمحتاج. فهو يجمع بين الإخبار بما وقع والدعوة إلى أن يكون قدوة فيعمل

(١) ابن منقذ، الاعتبار، ١٠.

الناس عمله هذا، وبذلك تصبح كتابة السيرة لوناً من ألوان الخطاب الحجاجي، فالاعتبار بهذا الموقف، وقد اهتم المحدثون بالقيمة الحجاجية للسيرة الذاتية، ومنها دراسة الباحث عبد الله صولة بعنوان: "كتاب الأيام لطفه حسين خطاباً حجاجياً" فقد أقامه صاحبه على قراءة القصّة بما هي أطروحة حجاجيّة أراد بها طه حسين إقناع أبناء جيله بقدرته على تحدّي الصعاب، وحملهم على الانخراط معه في الاعتقاد في أنّ قيمة التعليم هي القيمة العليا التي مكّنته من الارتقاء اجتماعياً.^(١)

وفي السياق ذاته يروي أسامة حكاية رجل غريب تدخل لفك أسير في موقف من مواقف الشهامة والتبّل.

يقول أسامة: «ومن ألطاف الله تعالى أن ملك الروم لما نزل على شيزر في سنة (٥٣٢هـ) خرج من شيزر جماعة من الرجال للقتال فاقتطعهم الروم فقتلوا بعضاً وأسروا بعضاً، فكان في جملة من أسروا زاهد بني كردوس من الصالحية من مولدي محمود بن صالح صاحب حلب، فلما عاد الروم كان معهم مأسوراً، فوصل القسطنطينية فهو في بعض الأيام فيها إذ لقيه إنسان فقال: أنت ابن كردوس؟ قال: نعم. قال: سر معي أوقفني على صاحبك، فسار معه حتى أراه صاحبه. فقاوله على ثمنه حتى تقرر بينه وبين الرومي مبلغ الرضا فوزن له الثمن وأعطى ابن كردوس نفقة، وقال: تبلغ بها إلى أهلك وامض في دعة الله تعالى: فخرج من القسطنطينية وتوصّل إلى أن عاد إلى شيزر، وذلك من فرج الله تعالى وخفيّ لطفه، ولا يدري من الذي شراه وأطلقه»^(٢).

وفي هذا الموقف عظة وعبرة، مفادها عمل الخير وتقديم المساعدة للمحتاج -أيّاً كانت قيمتها- دون إعلان أو انتظار مقابل، وتأكيد أن ما جرى من إنقاذ الأسير

(١) الأيام خطاباً حجاجياً ضمن أعمال ندوة صناعة المعنى وتأويل النصّ، منشورات كلية الآداب منوبة تونس ١٩٩٢.

(٢) ابن منقذ، الاعتبار، ١١٩.

إنما كان من فرج الله وخفي لطفه.

وقد ضرب أسامة نفسه المثل في فعل الخير والعمل على كسب الثواب، فروى أنه كان يفتدي الأسرى، وقال: «كنت أتردد إلى ملك الإفرنج في صلح بينه وبين جمال الدين محمد بن تاج الملوك^(١) - رحمه الله - ليدّ كانت للوالد - رحمه الله - على بغدوين^(٢) الملك والد الملكة امرأة الملك فلك بن فلك، فكان الإفرنج يسوقون أسراهم إليّ لأشترتهم، فكنتُ أشتري منهم من سهّل الله تعالى خلاصه»^(٣).

ومن مواقف النخوة والتضحية ما يرويه أسامة عن امرأة مسلمة أسيرة فضلت الغرق على الأسر، يقول^(٤):

«وكان في جند الجسر رجل كردي، يقال له: أبو الجيش، له بنت اسمها رفول، قد سباهها الإفرنج، وهو قد توسوس عليها، يقول لكل من لقيه يومها: "سُبيت رفول"، فخرجنا من الغد نسير على النهر، فرأينا في جانب الماء سواداً، فقلنا لبعض الغلمان: اسبح أبصر ما هذا السواد؟ فمضى إليه، فإذا ذلك السواد رفول عليها ثوب أزرق، وقد رمت نفسها من على فرس الإفرنجي الذي أخذها، فغرقت، وعلق ثوبها في شجرة صفصاف، فسكنت لوعة أبيها أبي الجيش».

وفي هذه القصة كذلك عبرة بليغة تؤكد ما تتصف به المرأة المسلمة من نخوة وإباء حتى لتفضل الموت على الوقوع أسيرة في يد الأعداء فيمتهنون كرامتها وحريتها، وكان رد فعل أبيها يمثل أيضاً عبرة من العبر، وبهذا، تتحول قصة السيرة إلى سياق

(١) تاج الملوك، بوري طغتكين، أمير دمشق.

(٢) بغدوين: ملك أورشليم.

(٣) ابن منقذ، الاعتبار، ١٠٥.

(٤) نفسه، ٢٤٢ - ٢٤٣.

يحتفل بالقيم الاجتماعية الأصيلة.

المواقف التربوية والأخلاقية:

خفلت سيرة أسامة بن منقذ بالمواقف التربوية والأخلاقية والقيمية، وقد أسهم والده في تأصيل هذه القيم سواء بالأقوال أو الأفعال، فكان يلفته إلى تفاضل الرجال في همهم ونحواتهم، وأن ألف رجل أردياء لا يساؤون رجلاً واحداً جيداً^(١). ووجد أسامة في سيرة والده عبرة وعظات، فحكى عن عزيمته وعمق إيمانه، فقال: «وكان -رحمه الله- مع ثقل جسمه وكبر سنّه، وأنه لا يزال صائماً يركض نهاره كله... ونحن معه أربعة أولاده نتعب ونكلّ، وهو لا يضعف ولا يكل ولا يتعب»^(٢). وفي هذا السياق يقول: «وكان الوالد -رحمه الله- كثير المباشرة للحرب وفي بدنه جراح هائلة، ومات على فراشه»^(٣). وفي ذلك عظة وعبرة تؤكد مقولة أسامة بأن الأجل مؤقت وأن ركوب أخطار الحرب، لا ينقص مدة الأجل المكتوب»^(٤).

المواقف القدريّة:

تزخر كتابة سيرة أسامة بن منقذ بالتعبير عن المواقف القدريّة، وهي أكثر المواقف استدعاءً للعبارة والعظة، وفي هذه المواقف يؤكد أسامة حقيقة تصريف الله لشؤون خلقه ومخلوقاته وما ينطوي عليه ذلك من حكمة ومشئنة، ويلجأ أسامة على هذا المعنى كثيراً فيما يرويّه من أحداث وفيما يستخلصه منها من عبر، كقوله: «فسبحان من نفذت مشيئته في خلقه يحيي ويميت وهو حي لا يموت، بيده الخير

(١) نفسه، ١٥٤.

(٢) نفسه، ٢١٣.

(٣) نفسه، ٥١.

(٤) نفسه، ٢٠٩.

وهو على كل شيء قدير، فتبارك الله القادر على ما يشاء»^(١).
ويؤكد أسامة هذه الحقائق القدرية في مواضع كثيرة من سيرته، كقوله تعقيباً على إحدى الحوادث «وكل ذلك مقرون بما تجري به الأقدار والأقضية»^(٢)، ويقول في موضع آخر: «فسبحان مقدّر الأقدار ومسبب الأسباب»^(٣). وهكذا يتدخل السارد ليعلق على ما يجري من الأحداث وليوجّه الحكاية نحو غرض الاعتبار.
ويورد أسامة كثيراً من الحوادث والمواقف التي تتصرف فيها قدرة الله، ومنها أن أيسر الأشياء يقتل عند فراغ الأجل، ويتمثل في ذلك بقصة طحّان قتلته لسعة زنبور، ويستخلص العبرة من هذه الحادثة بقوله «والفأل موكل بالمنطق»^(٤).
وفي المقابل، يروي أسامة أحداثاً تقرن النجاة من الموت بامتداد الأجل، ومن ذلك ما يحكيه عن والده، يقول^(٥):

«وشهد -رحمه الله- سنة سبع وتسعين وأربعمائة، مع سيف الدولة خلف بن مُلاعب الأشهب صاحب أفامية، بأرض كفر طاب، فلبس جَوْشنة، وعجل الغلام عن طرح كُلاب الجوشن من الجناوب، فجاءه حُشت (حربة) فضربه في ذلك الموضع الذي أحلّ الغلام بستره، فوق بَزّه الأيسر، خرج الحُشت من فوق بَزّه الأيمن، فكانت أسباب السلامة، لما جرت به المشيئة من العجب، والجرح، لما قدّره الله سبحانه من العجب»^(٦).

(١) ابن منقذ، الاعتبار، ١٨٧ - ١٨٨.

(٢) نفسه، ٢٣٥.

(٣) نفسه، ٢٣٦.

(٤) نفسه، ٣٥، وهو يشير إلى المثل القائل "إن البلاء موكل بالمنطق"، الميداني، "جمع الأمثال"، ٣٥.

(٥) ابن منقذ، الاعتبار، ١١٨.

(٦) نفسه، ١٧٠ - ١٧١.

ويخلص أسامة - في موضع آخر - إلى حقيقة أن الله خلق خلقه أطواراً مختلفي الخلق والطباع، بمقتضى حكمته، وعموم قدرته، ولكن تسييرهم أقدارهم، وأنّ الأمور والظواهر والأحداث لا تقاس بقيمتها بل بما وراءها من حكم وتديير، ويتمثل في ذلك بحادثة تركماني جسيم قتله جرح بسيط، يقول:

«رأيت بعض أولاد الأمراء التركمان الذين كانوا في خدمة ملك الأمراء أتابك زنكي وقد أصابته نشابة ما دخلت في جلده مقدار شعيرة، فاسترخى، وانحلت أعضاؤه، وانقطع كلامه وغاب ذهنه، وهو رجل مثل الأسد، أجسم ما يكون من الرجال فأحضروا له الطبيب والجرائحي، فقال الطبيب: ما به بأس بل متى ما جرح ثانية مات، فهدأ وركب، وتصرف كما كان ثم أصابته نشابة أخرى بعد مدة، أحقر من الأولى، وأقل نكاية، فمات»^(١).

وفي سياق المواقف القدرية، يحكي أسامة عن وقعة كان الجرح فيها سبباً للشفاء، فيقول:

«وقد جرى لي مثل ذلك: كنت بالجزيرة في عسكر أتابك، فدعاني صديق لي إلى داره، ومعني ركايب اسمه غنيم.. وكان لضعفه ومرضه قد طرح السرج تحت رأسه ونام، فضربه ذلك الشاب التركي السكران بالسكين تحت سرتة، فشق في جوفه قدر أربع أصابع، فوقع موضعه، فحمله الذي دعانا، وهو صاحب قلعة باشر إلى داري ... إلا أن ذلك الجرح ما ختم، وما زال يخرج منه مثل القشور وماء أصفر، مدة شهرين، ثم ختم، وضمّر جوفه، وعاد إلى الصحة. فكان ذلك الجرح سبباً في عافيته»^(٢). فقوله مثل ذلك يدفع القارئ إلى مقارنة الأحداث ببعض واستخلاص النواميس المتحكمّة في الأقدار.

(١) نفسه، ١٨٥ - ١٨٦.

(٢) نفسه، ١٢٩.

وظيفة الاعتبار في كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ، سعيد بن عبد الله القرني

«ورأيت من استسقى وفصدوا جوفه فمات، وغنيم شقَّ ذلك السكران جوفه سلِّم وعوفي! فسيحان القادر!»^(١).
ويحكي أسامة من المواقف التي تؤكد أنه إذا وقع لطف الله بالرجل عميت عنه عيون أعدائه، يقول:

«وشاهدتُ من لطف الله تعالى وحسن دفاعه أن الإفرنج، لعنهم الله، نزلوا علينا بالفارس والراجل، و... وعسكر الفرنج قد ركب من الجبل مثل السيل. ومن جانبهم مسجد يُعرف بمسجد أبي المجد ابن سمية وفيه رجل يقال له حسن الزاهد، وهو واقف على سطح بيوت في المسجد يصلي، وعليه ثياب سود وصوف ونحن نراه وما لنا إليه سبيل. وقد جاء الإفرنج فنزلوا على باب المسجد، وصعدوا إليه، ونحن نقول: لا حول ولا قوة إلا بالله! الساعة يقتلونه! فلا والله ما قطع صلاته ولا زال من مكانه! وعاد الإفرنج نزلوا، ركبو خيلهم، وانصرفوا، وهو واقف مكانه يُصلي! ولا نشك أن الله سبحانه، أعماهم عنه، وستره عن أبصارهم، فسيحان القادر الرحيم»^(٢).

فقد كانت كتابة السيرة في كتاب الاعتبار سياقاً تتفرَّع عنه قصص كثيرة استخدم الكاتب تقنية الاكتناف والإدراج في سردها وفي ربطها بالغرض الرئيس للأثر.
ويندرج في هذه المواقف القدريّة ما يتعلق بنفاذ المشيئة الإلهية في الخلق، وهو معنى إيماني يؤكده أسامة في سيرته، فيحكي عن ذلك الرجل الجبار الذي قتل الأسد وقتله عقرب مثل الإصبع، ويعقب على ذلك بقوله: «فسيحان الله القادر النافذ المشيئة في الخلق»^(٣).

(١) نفسه، ١٣٠.

(٢) انفسه، ١٧٠ - ١٧١.

(٣) نفسه، ١٩٠ - ١٩١.

مواقف الشدائد والنكبات:

وفي مثل هذه المواقف نستخلص العبر والعظات، فيحكى أسامة بعض الوقائع التي تدل على الوحشية والاعتزاز بالقوة، منها ما حدث من الإجهاز على أسرة الحافظ وقتل أفرادها بطريقة وحشية بشعة، وعلّق أسامة على تلك الحادثة بقوله: «وكان ذلك اليوم من أشدّ الأيام التي مرّت بي، لما جرى من البغي القبيح الذي ينكره الله تعالى، وجميع الخلق»^(١).

فتلك الحادثة الشنيعة التي رواها أسامة تصور جانباً مظلماً، وواقعاً مأساوياً أليماً مما كان يجري في عصره.

تأمل أسامة بن منقذ هذه الحادثة ونظر إليها نظرة اعتبار وعظة، فقرن بينها وبين حادثة أخرى استرجع فيها ذكرى نكبة وزير آخر من وزراء الحافظ الفاطمي الأفضل بن الولخشي، فقال:

«ولولا نفاذ المشيئة في عباس وابنه، وعواقب البغي وكفر النعمة، لكان اتعظ بما جرى قبله للأفضل رضوان بن الولخشي (وزير الحافظ الفاطمي قتل في القاهرة من بعد سنة ٥٣١هـ). كان وزيراً، فقام الجند عليه بأمر الحافظ، كما قاموا على عباس، فخرج من مصر يريد الشام، وهُبت داره وحرمه».

وقد أوعز الحافظ الفاطمي لحرسه بقتل الوزير رضوان، «فراه رجل من صبيان الحرس الخاص واقفاً على باب الجامع، فقال: يا مولاي! ما تركب حصاني؟ قال: بلى، فجاء إليه يركض وسيفه في يده، فأوماً كأنه يميل للنزول، وضربه بالسيف، فوقع، ووصله السودان قتلوه، وتقاسم أهل مصر لحمه يأكلونه ليكونوا شجعاناً! فقد كان فيه معتبر وواعظ لولا نفاذ المشيئة»^(٢).

(١) نفسه، ٧٨.

(٢) نفسه، ٩٣ - ٩٤.

وظيفة الاعتبار في كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ، سعيد بن عبد الله القرني

فقد ربط أسامة بين النكبتين، وقرنهما بنفاذ المشيئة وعواقب البغي وكفر النعمة، وعاب على من تُكَب أنه لم يتعظ بما جرى قبله، وخلص في النهاية إلى استخلاص العبرة فقال: «قد كان فيه معتبر وواعظ لولا نفاذ المشيئة».

ومما سبق يتبين لنا أن سيرة أسامة بن منقذ تحتشد بالمواقف الاعتبارية التي تصبُّ جميعها في نطاق الغاية التي طمح إليها أسامة في كتابه وهي استخلاص العبرة من الأحداث التي يرويها.

المبحث الثاني

صورة القارئ الراغب في الاعتبار

يضع أسامة بن منقذ في سيرته الأدوات التعبيرية القمينة بأن تصنع قارئاً متقبلاً لمضامين الاعتبار، فالقارئ في هذا الكتاب هو مروي له يتلقى قصصاً قد يكون عاش مثلها، وربما استدعاها في ثنايا القراءة، وبذلك ينشط السارد كفايته التخيلية وذكرياته في مشاهداته. أو ربما سمع ما يشبهها أو قرأ عنها في مصادر أخرى، «فكاتب السيرة قريبة إلى قلوبنا، لأنه إنما كتب تلك السيرة من أجل أن يوجد علاقة رائعة ما بيننا وبينه، وأن يحدثنا عن دخائل نفسه، وتجارب حياته حديثاً يلقي منا آذاناً واعية لأنه يثير فينا رغبة في الكشف عن عالم بجهله، ويوقفنا من صاحبه موقف الأمين على أسرارهِ وخباياه، وهذا شيء يبعث فينا الرضى»^(١).

إن القارئ يجد نفسه أمام كثير من الحوادث والمشاهد التي تحمل دلائل الاعتبار، وتقدم له المواعظ والعبر، بل إن أسامة ذاته يتوجه إلى القارئ محذراً ومنبهاً، وحاملاً إياه على موقف دون آخر، وداعياً إياه إلى الاعتبار، ومن ذلك قوله: «فلا يظن ظان أن الموت يُقدِّمه ركوب الخطر ولا يؤخره شدة الحذر، ففي بقائي أوضح مُعتبر، فكم لقيتُ من الأهوال، وتقحمتُ المخاوف والأخطار، ولاقيتُ الفرسان، وأنا من الأجل في حصن حصين»^(٢). ويعني هذا التوجه أن الكاتب لا يفترض قارئاً واحداً بل يوجّه خطابه إلى طبقات من القراء، ومنهم ذلك الذي يظن أن الموت يقدمه ركوب الخطر. أما الذي اقتنع بعدُ بأن الموت لا يقدمه ركوب الخطر فإنه سيبارك هذا الكلام ويرسخ في نفسه معناه، وربما نجد معنياً بالخطاب في سياق آخر،

(١) إحسان عباس، "فن السيرة"، ط ١، (بيروت: دار صادر، ١٩٩٦م)، ١٠١.

(٢) ابن منقذ، الاعتبار، ٢٦١.

وبأفكار أخرى.

وكثيراً ما أورد أسامة حوادث ومواقف يُرجى منها أن يعتبر القارئ بما حلّ بغيره ليستفيد منها لنفسه، فتأتي موشاة بثياب الحكمة والعظة والاعتبار، كقوله: «ومن عجائب القلوب أن الإنسان يخوض الغمرات، ويركب الأخطار، ولا يرتاع من ذلك، ويخاف ما لا يخاف منه الصبيان ولا النسوان»^(١).

ويستشف القارئ الاعتبار من تعقيبات أسامة وأقواله التي تجرى مجرى الحكمة والمثل، كقوله: «إذا انقضت المدة، لم تنفع الشجاعة ولا الشدة»^(٢)، وقوله: «وفي حسن السياسة ريح كثير من عمارة البلاد»^(٣).

وقد يقدم أسامة الاعتبار للقارئ في صورة نصح وتوجيه، كقوله: «والرجال - إذا قووا نفوسهم على شيء - فعلوه»^(٤)، وقوله: «وكل أمرٍ لا يحضره العقل يظهر فيه الخطأ والزلل»^(٥).

وقد أورد أسامة قصصاً ووقائع كثيرة تدعو إلى الاعتبار، ومن ذلك ما رواه عن نحوه النساء وهن يقاتلن في شيزر ويثرن غيرة الرجال، مستشهداً بالوقعة التي جرت بين قوم أسامة وطائفة الإسماعيلية، فقد فوجئوا بإنسان قد دخل الدار، عليه زردية وخوذة، ومعه سيف وترس، فإذا هي أم ليث الدولة يحيى، فقالت لأحد أقاربها: «أي شيء تريد تعمل؟ قال: آخذ ما قدرت عليه، وأنزل الحصن بجبل وأعيش في الدنيا!! قالت: بئس ما تفعل! تُخْلِي بنات عمك وأهلك للحلاجين وتروح؟ أي عيش يكون

(١) نفسه، ٢٣٢.

(٢) نفسه، ١٦٨.

(٣) نفسه، ١٦٦.

(٤) نفسه، ١٥٣ - ١٥٤.

(٥) نفسه، ١٦٢.

عيشك إذا افتضحت في أهلك، وانخزمت عنهم؟ اخرج قاتل عن أهلك، حتى تُقتل بهم، فعل الله بك وفعل، ومنعته -رحمها الله- من الهرب، وكان من الفرسان المعدودين بعد ذلك»^(١).

ويقدم أسامة إلى القارئ درساً آخر يدلّ على صواب الرأي عند النساء، فيحكى موقفاً خرج فيه للصيد وعرض له أسد من أعظم السباع، وخاض أسامة معركة حامية معه حتى تمكن من قتله، وحمله وعاد به، وأقبلت عليه جدته في الليل، وبين يديها شمعة، وهي عجوز كبيرة قد قاربت من العمر مائة سنة، فما شك أسامة أنها قد جاءت تهنئه بالسلامة وتعرّفه مسرّته بما فعل، ولكنها قالت له بغيط: «يا بني! إيش يحملك على هذه المصائب التي تخاطر فيها بنفسك وحصانك وتكسر سلاحك، ... فعلمت أنها -رحمها الله- نصحتني في قولها وصدّقتني، ولعمري إنهن أمهات الرجال!»^(٢).

وقد جاء تعقيب أسامة على الموقف ليؤصل صورة المرأة العربية المسلمة في وجدان القارئ، ويحمله على احترام المرأة وتقدير أصالة رأيها. ولا يخفى على القارئ ما لهذا الموقف من دلالات تمجيدية أراد بها الكاتب التلميح إلى أصوله وأرومته الزكية الحكيمة من خلال شخصية الجدة.

وكثيراً ما تنطوي المواقف والمشاهد على ألوان من المفارقة، فإذا كان أسامة أورد من حكاياته ما يصور نخوة النساء وشجاعتهن، فإنه يورد -في المقابل- بعض حكايات تصور خورَ قلوب الرجال، ومن ذلك ما حكاه عن قائد يغشى عليه من النظر إلى جرح، فيقول: «وشاهدت من ضعف نفوس بعض الرجال وخورهم ما لا

(١) نفسه، ٢٠٩ - ٢١٠.

(٢) نفسه، ٢١١ - ٢١٣.

كنت أظنه بالنساء! ^(١) كما يحكي عن رجل يغشى عليه من الفصاد ^(٢).
وينقل كذلك ما يضاد ذلك، فيحكي عن رجل كان يطاعن الإفرنج برجل
واحدة ^(٣)، ورجل يستسقي فيشق بطنه ويخيطها ^(٤).

ومن مقاصد الاعتبار الموجه إلى القارئ تلك الحقيقة التي يؤكدتها أسامة وهي
أن النصر من الله، لا بالترتيب والتدبير ولا بكثرة نفير ولا نصير ^(٥)، وذلك إيماناً
وتأكيداً للنص القرآني ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ^(٦)، وقد مثل
أسامة لذلك بخبر انتصار أبيه وعمه وقلة من الجنود على جيش الإفرنج في شيزر، وهو
بذلك يحمل القارئ على الإيمان بقدرة الله والثقة في نصره للمؤمنين.

ويقدم أسامة العبرة إلى القارئ في مشهد آخر شارك فيه، فيقول: «... وعاد
الوالد - رحمه الله - وكنت فارقته من كفر طاب، وقد كسر العسكر، ونحن في كفر
طاب نحرزها نريد نعيمها، وكان اسباسلار ^(٧) سلمها إلينا، ونحن نخرج الأسارى كل
اثنين في قيد من أهل شيزر وقد احترق نصف ذا وقد بقيت خده، وذا قد مات في
النار، فرأيت منهم عبرة عظيمة، فتركناها وعدنا إلى شيزر مع الوالد - رحمه الله - وقد
أخذ كل ما كان معه من الخيام والحمال والبغال والبرك والتحمل وتفرق العسكر» ^(٨).

(١) نفسه، ٢٣٦.

(٢) نفسه، ٢٣٧.

(٣) نفسه، ٢٣٩.

(٤) نفسه، ٢٣٧.

(٥) نفسه، ٢٣٩.

(٦) آل عمران، ١٢٦.

(٧) هو حاكم الموصل شرف الدين مودود.

(٨) ابن منقذ، الاعتبار، ٩٨.

وقد يقدم أسامة العبرة للقارئ شعراً، كقوله: «وأنا القائل بمصر أذم من العيش الراحة والدعة، وما كان أعجل تقضيته وأسرعه:

وفي تغاير صِرْفِ الدَّهرِ مُعْتَبَرٌ وأيّ حالٍ على الأيام لم تَحُلْ^(١)

وقد يستدعي أسامة انتباه القارئ إلى حادثة يرى من الضروري وقوفه عندها، فيقطع السرد بقوله -مثلاً- مخاطباً القراء «فانظروا إلى هذا الاختلاف العظيم» وذلك عقب سرده لمجموعة من الأخبار عن الإفرنج، وقد يبدأ رواية الواقعة أو الحدث مُنبهاً القارئ -بصورة تحذيرية- بعيداً عن السرد والتقرير، فيقول: «والمحارب -ولو أنه الأسد- أتلفه وأعجزه اليسير من العوائق».

وعلى هذا النحو استطاع أسامة أن يقدم للقارئ دروساً مختلفة في الاعتبار، جاء بعضها بصورة مباشرة، وجاء بعضها الآخر بطريقة غير مباشرة، يستطيع القارئ أن يستخلصها أو يستشفها، ويسير على هداها، كما أورد أسامة من الحوادث والوقائع الخاصة به، لاسيما في الفروسية والقتال ما يحمل القارئ على محاكاته واتباعه والاحتذاء به، وبذلك استطاع أسامة بن منقذ أن يقيم علاقة وثيقة بينه وبين القارئ لسيرته، وأن يجذبه إليها بما اتسمت به من بساطة الأداء اللغوي، وعفوية التعبير، وصدق البوح والإفشاء.

(١) نفسه، ٢٠٩.

المبحث الثالث

صلة الاعتبار بالذات الكاتبة

لم يكن توجه أسامة بن منقذ إلى موضوع الاعتبار اعتباطياً، ولكنه كان توجهاً مقصوداً لعقد صلة بين الاعتبار وبين ذاته، ولذلك فقد قدم رؤيته وتصوره للاعتبار من وجهة نظره، بوصفه المعنيّ المباشر به.

وإذا كان كتاب الاعتبار يمثل - في صورته العامة - لوناً من السيرة الذاتية وتصوير تجاربه المختلفة التي عاشها، بحلوها ومُرّها، وبنجاحها وإخفاقها، فإنه يحمل في طيات هذه التجارب عبراً وعظات كثيرة تفيد المؤلف والقارئ معاً.

فأغلب المشاهد والمواقف التي أوردها أسامة في كتابه لم يكن غايتها السرد الحكائي بقدر ما كانت لوناً من محاسبة الذات وحملها على الاعتبار.

كتب أسامة سيرته وقد بلغ التسعين من عمره كما ذكرت من قبل، ورأى في بقائه أوضح معتبر بعد حياة حافلة تعرض فيها للأهوال والمخاطر، وقاتل الفرسان، وقتل الأسود، وضرب بالسيوف، وطعن بالرمح، فأخذ يسترجع ذكريات حياته الطويلة الحافلة بالتجارب الكثيرة من أجل استخلاص العبرة منها، ولذلك سمى سيرته بـ (الاعتبار)، لأنه الهدف الأسمى الذي دفعه لتدوينها بعد أن رأى في حياته عظات وعبراً جديرة أن تسجل لتكون عبرة له وللآخرين، فما شاهده من أهوال وتصرف الآجال أوفى موعظة وأبلغ عبرة، ومن هنا كانت صلة الاعتبار بالذات الكاتبة صلة وثيقة حميمة، والعلاقة بينهما وشيجة.

لقد استخلص أسامة من تجاربه عبراً وعظات كثيرة، أهمها أن الحياة ذاتها بكل ما تنطوي عليه من تناقضات إن هي إلا نظام من العلامات والإشارات، وأن عمر الإنسان مؤقت مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا

يَسْتَقْدِمُونَ ﴿١﴾، وأن الموت يدرك الإنسان أينما كان، وأن الموت «لا يقدمه ركوب الخطر، ولا يؤخره شدة الحذر»^(٢)، وأن «ركوب أخطار الحروب لا ينقص مدة الأجل المكتوب»^(٣)، وأن «الأجل حصن حصين»^(٤).

ولم يتكلف السارد استخلاص هذه العبر ولم يختلقها، وإنما استنتجها من الشواهد والوقائع وذكر ما يؤيدها ويؤكددها، فكان أسامة يستخلص العبرة من الموقف الذي يحكيه. ومن ذلك قوله:

«ووصل عمي من عند نجم الدين إيلغازي (أمير ماردين)، بعد أيام، فأتاني رسوله يستدعيني في وقت ما جرت عادته فيه، فجئته فإذا عنده رجل من الإفرنج، فقال: «هذا الفارس قد جاء من أقاسية يريد يُبصر الفارس الذي طعن فيليب الفارس، فإن الإفرنج تعجبوا من تلك الطعنة، وأنها خرقت الزردية من طاقتين وسلم الفارس!» فقلت: كيف سلم؟ قال ذلك الفارس الإفرنجي! جاءت الطعنة في جلدة خاصرته. قلت «نعم! الأجل حصن حصين» وما ظننته يسلم من تلك الطعنة»^(٥).
فالعبرة التي يترك الكاتب القارئ يستخلصها استخلاصا من هذه الرواية هي أن الأجل حصن حصين ولذلك سلم هذا الفارس من تلك الطعنة القاتلة، برغم أنها كنت طعنة نافذة.

ومن العبر التي استخلصتها الذات الكاتبة أن السلامة من المخاطر من دلائل قدرة الله عز وجل، ويستشهد أسامة على هذه الحقيقة بما تعرض له من أهوال في

(١) النحل، الآية ٦١.

(٢) ابن منقذ، الاعتبار، ٦٩.

(٣) نفسه، ٢١١.

(٤) نفسه، ٢٦١.

(٥) نفسه، ١٠٥.

موقف من مواقف حياته. يقول:

«فسرنا في أشد من الموت، في بلاد الفرنج بغير زاد للرجال، ولا علف للخيل، إلى أن وصلنا جبال بني فهيد -لعنهم الله- في وادي موسى، وطلعنا في طرقات ضيقة وعرة إلى أرض فسيحة ورجال وشياطين رجيمة، من ظفروا به منا منفرداً قتلوه... وسرنا حتى وصلنا بلد دمشق، بمن سلم من الإفرنج وبني فهيد، يوم الجمعة خامس ربيع أول من السنة (٥٤٩هـ)، وكانت السلامة من تلك الطريق من دلائل قدرة الله - عز وجل - وحسن دفاعه»^(١).

ومن العظات والعبر التي استخلصها أسامة أن دوام الحال من المحال، وأن طول العمر يفعل الأفاعيل بالرجال، فيقول في معرض حديثه عن فارس شجاع: «وما مرَّ عليه إلا أعوام قليلة وهو علاف يبيع الشعر والتبن، وقد كبر حتى صار كالشَّن البالي، يعجز عن دفع الفأر عن علفه، فما بال الرجال، فكنتُ أتعجب من أول أمره عندما صار إليه آخر أمره! وما أحال حاله طول عمره، ولم أدر أن داء الكِبَر عام، يُعدى كلَّ من أغفله الحِمَام»^(٢).

رأى أسامة فيما حدث لذلك الفارس عبرة، فتعجب مما آل إليه حاله بعد أن كان فارساً قوياً يهابه الفرسان، حتى لحقته الشيخوخة فصار عاجزاً ضعيفاً، فكانت العبرة المستخلصة أن الكِبَر داء عام يصيب كل من أغفله الموت.

وفي سياق استخلاص العبر، يروي أسامة عدة مشاهد عن عجائب الأقدار وما تنطوي عليه الحياة من مفارقات، فيقول -عن أحد تلك المشاهد-: «وقد شهدت قتال الأسد في مواقف لا أحصيها، وقتلت عدة منها لم يشركني أحد في قتلها، فما نالني من شيء منها أذى. وخرجت يوماً مع والدي إلى الصيد، في جبل قريب من

(١) ابن منقذ، الاعتبار، ٨٦ - ٨٧.

(٢) نفسه، ٢٥٦ - ٢٥٧.

البلد ... وبينما أنا مشغول بالنظر إلى الأوائل فندستني^(١) (ضبعة) رمتني من باب المغارة إلى القرارة التي تحته، فكادت تكسرنى، فتأذيت بضبعة، وما تأذيت بالسباع، فسبحان مُقدِّر الأقدار، ومسبِّب الأسباب»^(٢).

فالعبرة التي استخلصها أسامة أن ما جرى له من عجائب الأقدار، وأن الله - عز وجل - هو الذي يُقدِّر الأقدار، ويسبِّب الأسباب.

ويكثر أسامة من رواية الأحداث والمشاهد التي تتصل بالحقائق الوجودية، وتقترن بالموت والأجل، ويروي عجائب تدعو إلى الاعتبار، فيقول:

«ومن عجائب السلامة، إذا جرى بها القدر، وسيقت بها المشيئة» حاكياً قصة رجل سلم بأعجوبة من بطش صاحب آبد حين قتل أصحابه فتعلق بجبل من دوحهم، فنجأ، ويعقب أسامة مستخلصاً العبرة فيقول: «فسبحان مَنْ إذا قَدَّر السلامة أنقذ الإنسان من لُهاة الأسد، فذلك حق لا مثْل»^(٣).

وكما وجد أسامة العبرة فيما حدث لغيره، وجدها فيما حدث له، فيروي موقفاً تعرض له وكاد يودي بحياته لولا أن الله كتب له السلامة. يقول:

«وانقطعت يوماً عن أصحابي وتحتي حصان أبيض هو أردأ خيلي، شدَّه الركابي، وما معي من السلاح غير سيفي، فحمل عليَّ العرب فلم أجد ما أدفعهم به، ولا ينجنيني منهم حصاني، وقد وصلتني رماحهم، قلت «أثب عن الحصان، وأجذب سيفي، وأدفعهم» فجمعت نفسي لأثب فتتعتع الحصان، فوقعت على حجارة وأرض خشنة، فانقطعت قطعة من جلد رأسي، ودختُ حتى ما بقيت أدرى بما أنا فيه، فوقف عليَّ منهم قومٌ وأنا جالس مكشوف الرأس غائب الدهن، وسيفي مرمرى

(١) ندستني: قذفت بي. (اللسان: مادة: ندس).

(٢) ابن منقذ، الاعتبار، ٢٣٥ - ٢٣٦.

(٣) نفسه، ١٦٠.

بجهازه، فضربني واحد منهم ضربتين بالسيف وقال: «هات الوزن» أي المال، وأنا لا أدري ما يقول، ثم أخذوا حصاني وسيفي، ورآني الأتراك فعادوا إليّ، ونفذ لي ناصر الدين بن عباس حصاناً وسيفاً، وسرت وأنا لا أقدر، عليّ عصابة أشد بها جراحي، فسبحان من لا يزول ملكه!»^(١).

فالعبرة التي استخلصتها الذات هي أن العناية الإلهية تتدخل في المحن فتنقذ من تشاء وتكتب له السلامة والنجاة.

وينتقل أسامة -في السياق ذاته- من الخاص إلى العام، فيقول معقّباً على ما رواه من حوادث «فهذه نكبات تزعزع الجبال، وتفني الأموال، والله -سبحانه- يُعوّض برحمته، ويختم بلطفه ومغفرته، وتلك وقعات كبار شاهدها مضافة إلى نكبات سلمت فيها النفس لتوقيت الآجال»^(٢).

وكانت الوقعات والحروب التي شارك فيها أسامة مجالاً لاستخلاص العبر والعظات. يقول: «وقد كان بين هذه الوقعات فترات شهدت فيها من الحروب مع الكفار والمسلمين ما لا أحصيها، وسأورد من عجائب ما شاهده وما رسته في الحروب ما يحضرنى ذكره»^(٣).

ومن العبر التي استخلصها أسامة أن قوة النفس قد تغرى بالتفريط أحياناً. يقول: «وجرى لي مثل ذلك بدمشق: كنت يوماً مع الأمير معين الدين فأتاه فارس فقال: قد أخذ الحرامية قافلة في العقبة حاملة خام فقال لي: نركب إليهم. قلت: الأمر لك، أوامر الشاوشية فتركب العسكر معك. قال: أي شيء حاجتنا إلى العسكر؟ قلت: وما يضرنا من ركوبهم؟ قال: ما نحتاجهم. وكان من أشجع الفرسان، ولكن قوة

(١) نفسه، ٨٤ - ٨٥.

(٢) نفسه، ٩٧.

(٣) نفسه، ٩٧.

النفس في بعض المواضع، تفريط ومضرة»^(١). فعبارة مثل ذلك تعني في هذا السياق أنّ سرد القصة أو الواقعة ينبغي أن ينتظم في سلسلة من الخطابات الحاملة لجملة من العبر المتشابهة الدالة على أنّ وراء الحكاية أي حكاية الحياة وما يجري فيه حكمة ومقادير مسطرة.

وفي المقابل يرى أسامة أن التغير بالنفس قد يكون سببه حملها على ركوب الأخطار في الحرب. يقول:

«فأما التغير في الإقدام، فما هو للزهد في الحياة، وإنما سببه أن الرجل إذا عُرف بالإقدام، ووسم باسم الشجاعة، وحضر القتال، طالّبته همته بفعل ما يُذكر به ويعجز عنه سواه، وخافت نفسه الموت وركوب الخطر، فتكاد تغلبه وتصده عما يريد فعله، حتى يضطرها ويحملها على مكروهاها، فيعتريه الزمّع وتغيّر اللون لذلك، فإذا دخل في الحرب بطل زوّعه وسكن جأشه»^(٢).

وإذا كان القرآن الكريم قد خصّ الاعتبار بذوي الألباب وأصحاب العقول، فإن أسامة قد أعلى من شأن العقل، ووجد في رجاحته مجالاً للعظة والاعتبار، وحكى ما يؤكد أنه بالعقل تعمّر البلاد، فقال: «ومن ذلك أن روجار صاحب أنطالية كتب إلى عمي يقول:

«قد نفذت فارساً من فرساني في شغل مهم إلى القدس، أسأل تنفذ خيلك تأخذه من أفامية، ويوصلونه إلى رُفَيّة، فركب وأرسل إليه من أحضره، فلما لقيه قال: قد نفذني صاحبي في شغل وسرّ له لكني رأيته رجلاً عاقلاً، فأنا أحدثك به» فقال له عمي: «من أين عرفت أنني عاقل وما رأيته قبل الساعة؟ قال: لأني رأيت البلاد التي مشيت فيها خربة، وبلدك عامر، فعرفتك أنك ما عمرته إلا بعقلك وسياستك»

(١) نفسه، ٢٤٦.

(٢) نفسه، ٢٤٦.

وحدثه بما جاء فيه»^(١).

ويؤكد أسامة أهمية الحاجة إلى العقل في كل موضع، ويروي مشهداً حضره العقل فوفق فيه أصحابه، فيقول: «ركبنا في بعض الأيام من شيزر إلى الصيد وعمي معنا وجماعة من العسكر، فخرج علينا السبع من قصباء، فحمل عليه رجل من الجند كردي، وكان من فرسان المسلمين، فاستقبله السبع، فخاص به الحصان، فرماه وجاءه السبع وهو ملقى فرفع رجله فتلقمها السبع، وبادرناه فقتلنا السبع واستخلصناه وهو سالم، فقلنا له: لم رفعت رجلك إلى فم السبع؟ قال: جسمي كما ترونه ضعيف نحيف، فقلت أشغله بما عن أضلاعي أو يدي أو رأسي إلى أن يفرج الله تعالى، فهذا حضره العقل في موضع نزول فيه العقول، وأولئك ما حضرهم العقل، فالإنسان أحوج إلى العقل في كل ما سواه، وهو محمود عند العاقل والجاهل»^(٢).

فلم يكن أسامة رغم فروسيته وإقدامه على الحروب وتجربة صيد الوحوش وغيرها من أخلاق الشجعان يدعو إلى إعمال القوة الجسمانية في كل الظروف والمواقف، وهذا لون آخر من ألوان الاعتبار.

ويؤكد أسامة عدة حقائق في هذا السياق، منها أن كل أمر لا يحضره العقل يظهر فيه الخطأ والزلل^(٣)، ومنها ضرورة اللجوء إلى العقل في الحرب وخارجها^(٤).

ومن العبر التي استخلصها أسامة أن الله سبحانه إذا قضى بالفرج ييسر له الأسباب، ويستشهد على ذلك فيحكي ما حدث مع ابن صاحب الطور وكان مغرى بالصيد، فخرج يتصيد فوق في يد بعض الإفرنج، فأخذوه وحبسوه في جُب

(١) نفسه، ١٦٤ - ١٦٥.

(٢) نفسه، ١٦٣ - ١٦٤.

(٣) نفسه، ١٦٢.

(٤) نفسه، ١٦٣.

وحده، حتى خلصه رجل بدوي استطاع أن ينقب الجب حتى أخرجه، وعلّق أسامة على هذه الحكاية فقال: «وإذا قضى الله سبحانه بالفرج فما أسهل أسبابه»^(١). نخلص -مما سبق- أن الاعتبار هو المحور الأساس والقطب الذي تجمعت حوله المشاهد والأحداث، وأن صلة الاعتبار بالذات الكاتبة صلة قوية وثيقة، فكان الاعتبار ينطلق منها ويرتد إليها، فتعيد استخلاصه وتقف أمامه وقفة المتأمل، المتعجب، الذي يرى أن حياة الإنسان حافلة بالعبر والعظات.

(١) نفسه، ١٥٥ - ١٥٦.

المبحث الرابع

وظيفة الثقافة الدينية في صياغة مفهوم الاعتبار

نشأ أسامة بن منقذ نشأة دينية خالصة، فحفظ القرآن، ودرس الحديث النبوي وعلوم الدين، وكان والده من أصحاب التقوى والزهد والصلاح، وقال عنه أسامة: «إن والدي -رحمه الله- كان قد فرغ زمانه لتلاوة القرآن والصيام والصيد في نماره، وفي الليل ينسخ كتاب الله تعالى»^(١).

واتخذ والد أسامة النسخ خدمةً لدينه، يقول أسامة عنه: «وكان يكتب خطأً مليحاً، فما غيّرت تلك الطعنة من خطّه، وكان لا ينسخ سوى القرآن، فسألته يوماً فقلت: يا مولاي كم كتبت ختمة؟ قال: الساعة تعلمون. فلما حضرته الوفاة قال: في ذلك الصندوق مساطر كتبت على كل مسطرة ختمة ضعوها (يعني المساطر) تحت خدي في القبر، فعددناها فكانت ثلاثاً وأربعين مسطرة»^(٢).

وكان والد أسامة على دراية كبيرة بعلوم القرآن «فقد كتب بعدة ختمات، منها ختمة كبيرة كتبها بالذهب وكتب فيها علوم القرآن: قراءاته وغريبه وعريبه وناسخه ومنسوخه وتفسيره وسبب نزوله وفقهه، بالخير والحمرة والزرق، وترجمه بالتفسير الكبير»^(٣).

وقد اهتم والد أسامة بتربية ابنه تربية دينية قويمة، فكان لهذه التربية أثر كبير في عمق تدينه، وقوة إيمانه، واتساع ثقافته الدينية التي وجهته إلى مقصد الاعتبار

(١) ابن منقذ، الاعتبار ٢٥٥.

(٢) نفسه، ٦٨.

(٣) نفسه، ٦٨.

وأسهمت في صياغة مفهومه. فلا اعتبار - في أصله - مقصد قرآني، فقد دعت الآيات الكريمة ذوي الألباب وذوي الأبصار إلى الاعتبار بالحوادث السالفة والأمم السابقة واستخلاص العبرة والعظة مما حدث لهم حتى لا يحيدوا عن طريق الهداية، فكان المقصد القرآني في الاعتبار هو الركيزة الأساسية التي استند إليها أسامة في رؤيته لهذا الغرض إذ انطلق في مفهومه من دافع إيماني، فكان يعزو الحوادث إلى المشيئة الإلهية، ويفسرها في إطار الرؤية الإيمانية، فمن ذلك قوله وهو يؤكد حقيقة أن ركوب الأخطار لا ينقص الأعمار «أعوذ إلى المهم، وأدع تعسف الليل المدهّم: لو صفت القلوب من كدر الذنوب، وفوّضت إلى عالم الغيوب، علمت أن ركوب أخطار الحروب، لا ينقص مدة الأجل المكتوب»^(١).

فهو ينطلق من ثقافة دينية وحقيقة إيمانية مؤداها أن لكل إنسان أجلاً موقوتاً، وهو مقدّر الأقدار، ومؤقت الآجال والأعمار، ولذلك فإن ركوب الأخطار وخوض المعارك لا ينقص مدة الأجل المكتوب وعلى المرء أن يعتبر بذلك ويسير في حياته على هذا النهج، وقد وظف الثقافة الدينية في صياغة السرد الذاتي الدال على مفهوم الاعتبار، فكل أمر مرهون بالمشيئة الإلهية، والأجل موقوت لا يؤخره الإحجام، ولا يقدمه الإقدام.

ويستظهر أسامة ثقافته الدينية ويوظفها في مواقف وحوادث كثيرة بهدف الاعتبار وأخذ العظة، وكثيراً ما يحيل إلى الآيات القرآنية التي تؤكد القدرة الإلهية والشيئة التي تحكم كل شيء، كما نجد في هذا المشهد. يقول:

«وشاهدتُ فارساً من رجالنا، وكان من شجعاننا، وقد التقينا نحن والإفرنج،

(١) نفسه، ٢٥٩.

وهو مُعَرِّى ما عليه غير ثوبين، فطعنه فارس من الإفرنج في صدره، فقطع هذه العصفورة التي في الصدر، وخرج الرمح من جانبه، فرجع وما نظنه يصل منزله حيًّا، فقدَّر الله -سبحانه- أن سلم وبرأ جرحه، لكنه لبث سنة إذا نام على ظهره لا يقدر يجلس إن لم يُجلسه إنسان بأكتافه، ثم زال عنه ما كان يشكوه، وعاد إلى تصرفه وركوبه كما كان. قلتُ: فسبحان من نفذت مشيئته في خلقه، يحيي ويميت وهو حيٌّ لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير»^(١). ونرى كيف لا يكتفي السارد ومن ورائه المؤلف بذكر الحادثة بل يحرص على الأخذ بيد القارئ وتوجيه شعاع قراءته للنص إلى المعنى الكامن وراء الحديث وبذلك يتحول كل حدث من أحداث الحياة إلى علامة دالة على حكمة الله في تدبير أمور الدنيا، وأعمال البشر وعلاقاتهم ومواقفهم وما يتعرضون له من محن. وفي موقف آخر يوظف أسامة الآية القرآنية في صياغة مفهوم الاعتبار، فيقول^(٢):

«وأما الإفرنج فإنهم اجتمعوا، بعدما قتلنا منهم من قتلنا، ووقفوا مقابلتنا، فجاء في ابن عمر (ذخيرة الدولة) فحمل على الإفرنج وحده فأخرجوا له حتى توسطهم، وطعنوه ورمّوه، وطعنوا الحصان... فتصايحنا «صاحبكم صاحبكم!» وحملنا عليهم فهزمناهم عنه، واستخلصناه وهو سالم، وأما الحصان فمات من يديه، فسبحان المسلم القادر! وتلك الواقعة إنما كانت لسعادة جمعه وشفاء عينيه، فسبحان القائل: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾»^(٣).

(١) نفسه، ١٠٥ - ١٠٦.

(٢) نفسه، ١٢٨.

(٣) البقرة، الآية ٢١٦.

يدعو أسامة في هذا الموقف إلى استخلاص العبرة بما جرى في تلك الحادثة أو الوقعة التي كان لها مردود إيجابي غير متوقع، ويعقب على الحدث بالآية الكريمة التي تناسب الموقف، وتراعي المقام، وتؤكد حقيقة الاعتبار.

وانطلاقاً من ثقافته الدينية وإيمانه العميق يؤكد أسامة بن منقذ حقيقة أن النصر من عند الله، لا بالترتيب والتدبير وكثرة النصير. يقول: «النصر في الحرب من الله، تبارك وتعالى، لا بترتيب وتدبير، ولا بكثرة نصير ولا نصير»^(١).

ويمثل لذلك بحادثة انتصار أبيه وعمه وقلة من الجنود على جيش الإفرنج الكثير العدد في شيرز، ويستند في ذلك على الآية الكريمة ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾^(٢).

فقد كان للثقافة الدينية الأثر الأكبر في صياغة مفهوم الاعتبار، وتوجيهه، وتأكيده رؤية أسامة بن منقذ وتصورات، فكانت هذه الثقافة هي الداعم والركيزة الأساسية لتلك التصورات حيث تجلّت الروح الإسلامية في كتابة السيرة، «فهو حريص في سرده لأحداث حياته ومشاهداته على غرض واحد، تأتلف وتتضافر حوله كل الأحداث المسرودة لتصبح في النهاية في مصب واحد، وهو ما أسماه (الاعتبار)، لأن السيرة استهدفت أمرين واضحين جليين أولهما، أنها حافلة بالأحداث والوقائع المثيرة للتفكير في نواميس الخلق والوجود، والأمر الآخر الذي يعزز العنوان الذي اختاره ويقويه وهو من أجل الفوز بثواب الله عز وجل ومنفعة المجتمع بما يشهده في سيرته من عظات وعبر، فالعمل موجه إلى الله أولاً، وإلى موعظة الإنسان ثانياً، وإلى نفسه

(١) ابن منقذ، الاعتبار، ص ٢٣٩.

(٢) آل عمران، الآية ١٢٦.

وظيفة الاعتبار في كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ، سعيد بن عبد الله القرني

ثالثاً، فهو يدرك أن وجوده الذاتي لا معنى له أصلاً خارج بوتقة الحكمة الإلهية، والمشئمة الربانية.

فالعنوان الذي وضعه لسيرته جاء مناسباً للهدف الدافع إلى كتابة هذه السيرة، فقد صاغها بأسلوب يمتاز بالحكمة والورع والدقة المتناهية والبراعة في نظم وسرد الأحداث، وجعلها تحت عنوان (الاعتبار) لتكون كما أراد، وربما هذا الأمر جعل سيرته تصطبغ بألوان الأدب، وتسمو وتصبح رائعة من روائع السير، التي قلما وجد مثلها في عصره أولاً، والعصور السابقة لعصره»^(١).

(١) حازم فارس علي أبو شارب، "فن السيرة في الأدب الأيوبي - كتاب الاعتبار أنموذجاً"، (جامعة الشرق الأوسط، ٢٠١٠ - ٢٠١١م). ١٥٢.

المبحث الخامس

تحول الاعتبار - في السيرة - من موضوع وعظي إلى موضوع أدبي

السيرة فن أدبي له طبيعة خاصة تختلف عن الأجناس الأدبية الأخرى، وإن اقتربت من الفن القصصي أو الروائي.

وللسيرة تعريفات كثيرة، فالسيرة الذاتية «تعني - حرفياً - ترجمة حياة الإنسان كما يراها»^(١)، وهي «التي يصوغها صاحبها في صورة مترابطة، على أساس من الوحدة والاتساق في البناء والروح، وفي أسلوب أدبي قادر على أن ينقل إلينا محتوى وافياً كاملاً، عن تاريخه الشخصي، على أنه موجز، حافل بالتجارب والخبرات المنوعة الخصبة، وهو الأسلوب الذي يقوم على جمال العرض، وحسن التقسيم وعذوبة العبارة، وحلاوة النص الأدبي، وبث الحياة والحركة في تصوير الوقائع والشخصيات»^(٢).

وتختلف السيرة الذاتية عن السيرة التاريخية بوصفها تصور تجارب صاحبها وتعطي صورة واقعية عن حياته، وإن لم تخل من التاريخ، كما تختلف بطبيعة الحال عن السيرة الغيرية.

وقد استطاعت السيرة في بنائها السردية أن تحول الاعتبار إلى موضوع أدبي، فقد اقترب أسامة فيها من الفن القصصي من خلال توظيف التقنيات السردية، واستعرض أحداث سيرته في سرد أدبي ممتع يقترب من الأسلوب القصصي، وصاغ عباراته في أسلوب أدبي جذاب، وزاوج بين السرد والحوار الذي جاء بطريقة شائقة.

(١) عبد العزيز شرف، "أدب السيرة الذاتية"، (مصر: الشركة المصرية العالمية للنشر، ١٩٩٢م)، ٢٧.

(٢) يحيى عبد الدايم، "الترجمة الذاتية في الأدب الحديث"، (ط ١، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية،

١٩٧٤م)، ١٠.

ويتيح لنا التحليل النفسي في مجال الكتابة الأدبية أن نستغلّ المقولات الأدبية المختلفة الأسلوبية منها والموضوعاتية والتداولية "لقراءة جانب من السرديات القديمة ككتب الاعتبار والسير الذاتية، فنفهم مثلاً تهيّب أسامة بن منقذ من الهرم في كتاب الاعتبار وارتقاءه في أحضان الماضي، وكتابة ذكريات الطفولة وأحلام الفارس المغوار، ومغامرات الصيد والغزو. ويتيح لنا هذا المذهب كذلك فهم الآليات التي استعملها بهاء الدين بن شدّاد في كتابة سيرة الناصر صلاح الدين الأيوبي الموسومة بالمحاسن اليوسفية والنوادر السلطانية ليخرج لنا الحلم الجماعي الذي كانت تعيشه الأمة زمن انتصارات الملك الناصر"^(١). ويمكن في سياق فهم تحوّل الكتابة من تاريخ حياة الشخصية إلى وثيقة أدبية أن ندرس خصائص الحكاية وترابط الأحداث، وهو تحول فني في أغلب الآثار التي تنتمي لهذا الجنس الأدبي ويرى بعض الدارسين مثلاً أنّ المنهج النفسي "يمكن أن يُطبّق على الخطاب السيري القديم بوجه خاصّ، والسيرة الذاتية بوجه أخصّ في نصوص من قبيل كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ وطوق الحمامة لابن حزم (في بعض أبوابه) وسيرة ابن خلدون والغزالي، ذلك لأنّ الكتابة في مثل هذه الخطابات تأخذ منحى سردياً نفسياً اجتماعياً، وهي إعادة لكتابة الطفولة وتكون النفس، ولإجراء بعض العمليات التصعيدية عبر التلقّظ الذاتي، بل إنّها كما يقول فيليب لوجون تحوّل الحياة نصّاً، ويغدو بها هذا الجنس الأدبي وسطاً بين المتخيّل واللغة، ويمكن لهذه الأدبية أن تكشف الكيفية التي تعيش بها الذات تاريخها"^(٢).

(١) صالح بن الهادي رمضان، "الخطاب الأدبي وتحديات المنهج"، (ط١، أبها: منشورات النادي

الأدبي ١٤٣١)، ص ٢٢٨.

(٢) نفسه، ص ٣٦٠.

ومن هذه التقنيات السردية:

السارد (الراوي):

تعتمد سيرة أسامة بن منقذ على السارد أو الراوي الذي يمثل إحدى تقنيات القصة، فلا وجود لها بدون السارد الذي يسرد الأحداث ويرسم الشخصيات ويحدد الزمان والمكان، وقام أسامة بدور السارد أو الراوي العليم، فهو يسرد الأحداث بصيغة المتكلم، فيصور مشاهد كثيرة من حياته، وما حدث لغيره، وقد ينوع في طريقة السرد، فينقل عن غيره، ويروي بعض ما حُكي له. وبذلك تحرر من قيود السرد التقليدي. واستطاع أسامة من خلال السرد أن يصور جوانب مهمة من حياته لاسيما ما يتصل بالفروسية والشجاعة في القتال، ووصف كثيراً من مظاهر الحياة في بلاد الشام.

الحوار:

وكثيراً ما كان يلجأ أسامة إلى الحوار لقطع رتابة الأسلوب السردى التقريرى، فكان الحوار من السمات الدرامية في السيرة «فالحوار جزء هام من الصياغة الدرامية، وبهذه الوسيلة تبدو لنا شخصية السيرة كأنها تضطلع حتماً بتمثيل مسرحية الحياة»^(١).

واضطلع الحوار بوظيفة مهمة هي تصوير الشخصيات، والكشف عن مكنوناتها النفسية، وامتزج الحوار أحياناً بالألفاظ عامية لإضفاء الواقعية على أحاديث شخصياته، ومجاراة لذوق العصر الذي شاعت فيه الألفاظ العامية واختلطت بالفصحى؛ ولذلك تعددت مستويات اللغة في السيرة، فمن مظاهر استخدام العامية إهمال الهمزة أو تحويلها ياء، فيقول (الحيط) بدلاً من (الحائط) ويقول (إيش أنتم) بمعنى أي شيء أنتم، واستعمال صيغة الجمع للعاقل، فيقول (الكلاب نطعمهم من عيشنا)، كما استخدم كثيراً من الكلمات الفارسية، مثل: الخان، البيرق.

(١) ماهر حسن فهمي، "السيرة تاريخ وفن"، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٠م)، ٨٤.

المونولوج الداخلي:

«وهو من أجمل التقنيات السردية التي أضفت على سيرة أسامة بن منقذ جمالاً، ورفعت من مستوى التقنية في السرد وتقوم طريقته في ذلك على قطع السرد والتمهيد للمونولوج الداخلي بعبارة "وأنا أحدث نفسي"، فمن ذلك ما نجده في قوله: "ورأيت مملوكاً لوالدي، يقال له: لؤلؤ، وكان رجلاً جيّداً مقداماً، وقد خرجت ليلة من شيرز، ومعني بغال كثيرة وبهائم، أريد أحمل عليها من الجبل خشباً قد قطعته هناك لناعورة. فسرنا من ظاهر شيرز، ونحن نظن أن الصبح قد دنا، فوصلنا إلى قرية يقال لها: (دسا)، وما تنصّف الليل، فقلّت: "انزلوا ما ندخل الجبل في الليل"، فلما نزلنا واستقررنا سمعنا صهيل حصان، فقلنا: "الإفرنج"، فركبنا في الظلام، وأنا أحدث نفسي: أني أطعن واحداً منهم وأخذ حصانه ويأخذون دوابنا والرجال الذين مع الدواب!" فالسرد يتتابع في رشاقة وسهولة ويراوح بينه وبين الحوار. ثم يقطع السرد بمونولوج داخلي يحدث نفسه فيه أن يقدم على أمر فيه مغم.^(١)

وقد يتشكل المونولوج الداخلي من مخاطبة المؤلف نفسه بجملة دالة على ذلك، كحديثه عن زيارة بيت المقدس، ودخوله إلى المسجد الأقصى، وفي جانبه مسجد صغير، وقد جعله الإفرنج كنيسة، فكان إذا دخل المسجد الأقصى وفيه فرسان الهيكل يخلون له ذلك المسجد الصغير ليصلي فيه، فدخله يوماً فكبر في الصلاة، فهجم عليه واحد من الإفرنج، مسكه وردّ وجهه إلى المشرق، وقال له: "كذا صل!"، وهنا يعمد أسامة إلى المونولوج الداخلي بقوله: "فقلّت: حسبي من الصلاة"^(٢) فهو هنا يحدث نفسه حاملاً إيها على القناعة والرضا. حيث استطاع من خلال هذه التقنية أن يعبر

(٢) ابن، منقذ، الاعتبار، ص ٢٣٣

(٣) نفسه، ص ٢٢٢ - ٢٢٣

عما يدور في نفسه، ويخرجها بصيغة فنية رائعة»^(١).

الشخصيات:

إن العالم الاجتماعي الذي عاش فيه أسامة يعجّ بالشخصيات، وتتنوع بين شخصيات ذكورية ونسائية، وبين مسلمين وإفرنج، وتعدّت العلاقات التي ربطته بأهل عصره، وليس هذا بغريب إذ تُعدُّ شخصية أسامة بن منقذ هي الشخصية الأساسية أو المحورية التي تدور حولها الأحداث وتسيرها، وقد صورت حياته في مراحلها المختلفة، والرحلات التي قام بها، وما تعرض له في حياته من انتصارات وإخفاقات، وصورت معاناته، وفروسيته، وشجاعته، ومهارته القتالية، كما كشفت عن نبل أخلاقه وصفاته الكريمة، وعمق تدينه، وتواضعه، وحنكته السياسية، كما تصور تعلقه بالصيد منذ طفولته، كما صورت رجاحة عقله، وحسن تصرفه. ولذلك جاءت شخصية متطورة نامية، تصنع الأحداث وتسيرها وتشارك فيها.

كما صورت السيرة شخصية والد أسامة وتدينه وورعه وكذلك شخصية عمه وجدته، ووالدته، واحتفظ بمواقف بطولية كثيرة عن تلك الأسرة المجاهدة. وتحتشد السيرة بشخصيات الفرسان والمجاهدين الذين أبلوا بلاءً حسناً في جهاد الصليبيين، كما حرصت السيرة على تصوير شخصيات الإفرنج بما يضمرونه من عداوة للإسلام والمسلمين.

الزمان والمكان:

هناك علاقة وثيقة في الأعمال السردية بين الزمان والمكان، ولذلك يميل بعض النقاد إلى وضعهما في مصطلح واحد هو (الزمان والمكان)^(٢).

(١) حازم حسن، "فن السيرة في العصر الأيوبي" ص ١٦٣.

(٢) ميخائيل باختين، "أشكال الزمان والمكان في الرواية"، (دمشق: منشورات وزارة الثقافة، ١٩٩٠م)، ٥.

أما الزمان في سيرة أسامة بن منقذ، فإنه زمن خطي إذ نلاحظ أن السارد يعتمد في سرده للأحداث على الزمن الماضي الواقعي، وهو زمن ممتد يستغرق فترات طويلة من حياته، وكي يوائم بين زمن الحكاية وزمن الخطاب فهو يعمد إلى اختيار الحوادث المهمة ويسقط أحداثاً لا يرى لها أهمية وهو -في ذلك- يستخدم إحدى التقنيات القصصية وهي تقنية الحذف والإسقاط، والقص المجلد وهي «تقنية زمنية تقتضي إسقاط فترة طويلة أو قصيرة من القصة، وعدم التطرق لما جرى فيها من أحداث ووقائع غير مهمة»^(١).

ويعتمد أسامة على تقنية قصصية أخرى هي تقنية التذكر والاسترجاع، فكان يسترجع الأحداث التي تحقق هدفه أو الغاية التي من أجلها دَوّن سيرته، وهي استخلاص العبر والعظات من الأحداث، وهو ما يفسر عدم اعتماد أسامة على التسلسل الزمني في سرد الأحداث.

وكان المكان هو الإطار العام الذي دارت فيه أحداث السيرة، فتكرر ذكر شيزر مدينة المؤلف، والإشارة إلى تنقلاته في دمشق ومصر، وعسقلان وبصرى والشام، ومعاركه في أفامية وغيرها، ولذلك كان أسامة حريضاً على ذكر المكان وإثباته لما يمثله من أهمية في متابعة الحدث وفهم أبعاده، فنجده يقول -مثلاً-: «فنزلنا ليلة في تيه بني إسرائيل»^(٢)، حيث جمع في هذه العبارة بين الزمان والمكان.

ويحدد المكان في موضع آخر فيقول: «ومما شاهدت من ذلك أني إذا جئت إلى نابلس أنزل في دار رجل، داره عمارة المسلمين لها طاقات تفتح إلى الطريق»^(٣). فقد حدد مكان الحدث ووصف الدار وصفاً ينحو فيه منحى القص.

(١) حسن مجراوي، "بنية الشكل الروائي"، (دمشق: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٩م)، ١٥٦.

(٢) ابن منقذ، الاعتبار، ٦٧.

(٣) نفسه، ٥٧.

لغة كتاب الاعتبار

يرى بعض الباحثين أن أسامة بن منقذ كتب كتابه الاعتبار بطريقة مغايرة، إذ جعل من لغة الكتاب دعامة أساسية من دعائم بناء الروايات والقصص التي نقلها للقارئ^(١).

ولعل من أهم مميزات السيرة أنها جاءت في لغة سهلة بسيطة خالية من التعقيد والتكلف وقيود الصنعة التي شاعت في عصر أسامة بن منقذ^(٢)، بل إن أسلوبه في كتاب (الاعتبار) جاء مغايراً لأسلوبه في كتاباته الأخرى التي مال فيها إلى الزخارف اللفظية.

وتنوع الأداء اللغوي في كتاب الاعتبار بين مستويين، أحدهما: المستوى التداولي ويقصد به استعمال الألفاظ والتراكيب العامية التي تداولها المجتمع وشاعت على ألسنة الناس آنذاك، وحكاية الأنماط اللغوية والأصوات الاجتماعية التي يتداولها الناس، ولم يكن الأمر مقصوراً عند أسامة على إيراد الألفاظ الأعجمية أو العامية في كتابه وإنما تعداه إلى حكاية الجمل والعبارات كما سمعها من أصحابها دون تعديل عليها، ولا ريب في أن لذلك قيمة هامة لدارس اللهجات وتطورها^(٣). كما أن أسامة باستخدام هذه الطريقة قد أضفى لوناً من الواقعية على أسلوبه القصصي.

أما المستوى الثاني من الأداء اللغوي في كتاب الاعتبار فهو المستوى الفصيح، وكان أسامة يعبر من خلاله عن الأحداث بلغة أدبية جذابة تنحو إلى الإيجاز وتنأى عن الإطناب.

(١) براءة محمود السقراط، "كتاب الاعتبار - دراسة تحليلية"، (الأردن: جامعة مؤتة) ٢٠١١، ٩٠.

(٢) نفسه، ٩٠.

(٣) نفسه، ٩٣.

المرج بين الشعر والنثر

مرج أسامة بن منقذ في سيرته بين الشعر والنثر، وذلك فيما يُعرف بتداخل الأجناس الأدبية، لاسيما في مواقف استرجاع ذكرياته أو حين يصور إحساسه بالضعف والكبر والعجز، كقوله: «ولم أدر أن داء الكبر عام يُعدى كل من أغفله الحِمام، فلما توقّلت ذروة التسعين، وأبلاني مرَّ الأيام والسنين، صرت كجواد العلاف، لا جواد المتلاف، ولصقت من الضعف بالأرض، ودخل من الكبر بعضي ببعض، حتى أنكرت نفسي، وتحسرت على أمسي، وقلت في وصف حالي:

لَمَّا بَلَغْتُ مِنَ الْحَيَاةِ إِلَى مَدًى قَدْ كُنْتُ أَهْوَاهُ تَمْنِيْتُ الرَّدَى
ضَعُفْتُ قَوَايَ وَخَانَنِي الثَّقَاتَانِ مِنْ بَصْرِي وَسَمْعِي حِينَ شَارَفْتُ الْمَدَى
فَإِذَا نَهَضْتُ حَسِبْتُ أَنِّي حَامِلٌ جَبَلًا وَأَمْشِي -إِنْ مَشَيْتُ- مُقَيِّدًا
وَأَدَبٌ فِي كَفْيِ الْعَصَا وَعَهْدَهَا فِي الْحَرْبِ تَحْمِلُ أَسْمَرًا وَمُهَنْدًا
وَأَبَيْتُ فِي لِينِ الْمَهَادِ مَسْهَدًا بَلَغَ الْكَمَالَ وَثَمَّ عَادَ كَمَا بَدَا

لقد وصف أسامة ما آل إليه جسده من الضعف والعجز -نثرًا- بلغة أدبية رفيعة، وأردف هذا الوصف بتلك الأبيات المفعمة بالصدق وجمال الصياغة اللغوية مما يضع سيرته في مصاف الأعمال الأدبية الخالدة.

ومما يؤكد الطابع الأدبي لكتاب الاعتبار كثرة استشهاد أسامة بشعره، وشعر الشعراء الآخرين في مواقف الاعتبار، كتضمنين أبيات عنتره في وصف القتال^(١):

إِنِّي أَمْرٌ مِنْ خَيْرِ عَيْسٍ مَنْصَبًا شَطْرِي وَأَحْمِي سَائِرِي بِالْمَنْصِلِ
وَإِذَا الْكَتِيبَةُ أَحْجَمَتْ وَتَلَاخِظَتْ أَلْفَيْتُ خَيْرًا مِنْ مُعِمِّ مَخُولِ
وَالْخَيْلُ تَعْلَمُ وَالْفَوَارِسُ أَنِّي فَرَقْتُ جَمْعَهُمْ بِضَرْبَةِ فَيْصِلِ

(١) عنتره بن شداد، "ديوان عنتره"، (بيروت: دار صادر) ٢٠١٢، ٦٥١.

وفي سياق الاستدلال على صحة الأجسام بالمرض، استشهد بقول المتنبي^(١):
لعل عتبك محمودٌ عواقبُهُ فرما صحت الأجسامُ بالعللِ

ونجده يستشهد في مواضع أخرى بشعر لزهير بن أبي سلمى وقيس بن الخطيم والفند الزماني وأبي العلاء المعري.

ومما سبق يمكن النظر إلى سيرة أسامة بن منقذ بوصفها مصنفاً أدبياً يأخذ شكل القصة من خلال النزعة القصصية التي تهيمن على السيرة والتي تنطوي على عنصري التشويق والإبداع، وما حفلت به من مشاهد عجائبية، وحكايات يمتزج فيها الواقع بالخيال، وشخصيات نابضة بالحركة والحياة، والاعتماد على الأسلوب القصصي في سرد الأحداث، وبذلك اجتمعت عناصر الفن القصصي في السيرة «حتى ليصح أن تكون سيرته نموذجاً فريداً لفن القصة في هذا الوقت المبكر من تاريخ أدبنا العربي»^(٢).

وعلى هذا النحو، فإن كتاب الاعتبار لم يكن سرداً تاريخياً محضاً، وإنما كان «تصويراً حافلاً بعناصر الفن، مما يحدث في النفس متعة بالغة الأثر، ويكون في التصوير القصصي من أكثر الأشكال شيوعاً في سيرته»^(٣)، وبهذا يكون أسامة بن منقذ قد نجح نجاحاً باهراً من وجهة نظر الباحث في تحويل الاعتبار -الذي هو موضوع وعظمي ديني- إلى موضوع أدبي من خلال سيرته في بنائها السردية الممتعة.

(١) عبد الرحمن البرقوقي، "شرح ديوان المتنبي" (بيروت، ١٩٨٣م)، ٢١٠.

(٢) حسن عباس، "أسامة بن منقذ - حياته وآثاره"، (الإسكندرية: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨١م)، ٧٧.

(٣) إبراهيم عبد الدايم يحيى، "الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث"، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٥م)، ٤١.

ولعل فيليب حتى لم يجانب الصواب حين قال إن أسامة بن منقذ «أتقن الفن القصصي، وأبدع في إيراد نكته كل الإبداع»^(١). فقد يأتي بقصة منذ زمن بعيد، فنراه يمثل أحداثها، ويتفاعل معها كما لو حدثت معه^(٢)، على نحو ما يحكيه من قصة الرجل الذي وجد عقداً من اللؤلؤ، وهو يطوف بالكعبة، ثم عرف صاحبه ودفعه إليه ... ثم سافر الرجل إلى المغرب حيث يسكن صاحب العقد، فوجده وهو لا يعلم أنه هو الذي أضاع العقد في الكعبة، فعمل عنده، وقرر تزويجه ابنته، ووصف له ابنته بأنها بشعة فوافق الرجل، ولما دخل عليها، وجدها على غير ما وصفت له ... ووجد العقد الذي وجده في الكعبة في رقبة زوجته، فعرف أن أباه هو الذي أضاع العقد في الكعبة^(٣).

أثر المفارقات في كتاب الاعتبار:

المفارقة في الكتابة الأدبية أسلوب من أساليب إدهاش القارئ بما يحدث من مقابلات بين الأشياء والظواهر، وبين ما لا يتوقعه السامع أو القارئ من صلات تخالف منطق الأشياء والأعراف والعادات، كأن يكون البخيل سخياً أو يدعو المجرم إلى الفضائل، وهي عبارة عن وسيلة يوظفها المؤلف لإبراز الجوانب الخفية في النص وإبراز تناقضاته، أو الإمكانات التي لا يحسب المتلقي لها حساباً فهي تنبع من رؤية الكاتب وإحساسه بما في الحياة والمجتمع من تناقضات، حيث يتناقض المعنى الظاهر مع المعنى الخفي، والشرط الأساسي لتحقيق المفارقة هو وجود تضاد، ومما تتميز به المفارقة أنها تسمح بالتأويل بل تحتّ عليه وتحمل روح الفكاهة والسخرية، أو الغضب والرفض أحياناً وقد تنطوي على عبرة أو عظة. إنها تباين واختلاف وضرب من

(١) ابن منقذ، الاعتبار"، ٢٠.

(٢) حازم فارس "فن السيرة في العصر الأيوبي"، ٧٥.

(٣) ابن منقذ، "الاعتبار"، ١٧٩.

التلاعب اللفظي الذي يعين صاحبه على تأييد القول الواحد ونقيضه على السواء، بل إنها حيلة فنية يلجأ إليها الكاتب لإبراز التضاد في المواقف، وقد كانت ذات تأثير كبير في كتاب الاعتبار بوصفها بنية فنية عوّل عليها المؤلف في سرد أحداث سيرته من خلال الإثارة والمتعة ومباغطة القارئ وإثارة انتباهه وتحفيزه على التفكير والتأمل وإمتاعه انفعالياً، وقد حرص ابن منقذ على تقوية كتابته من خلال ما منحه للمتلقي من حس الاكتشاف للمواقف ونتائجها مع حرصه على عدم إيقاع المتلقي في أتون الانفعال السريع الذي يفقد النص قيمته، وسعى إلى طرح وسائل توعوية أسهمت في رفع مستوى فهم القارئ للحياة وطبيعتها القائمة على التناقضات، فكانت بلسماً يصنع التوازنات، إضافة إلى ما حفل به كتاب الاعتبار من توظيف للسخرية التي تكون سلاحاً للهجوم تارة ومثيرة للضحك تارة أخرى، ومما ظهر بجلاء في كتاب الاعتبار ذلك التأثير البالغ في المتلقي من خلال العبارة الموجزة الموحية، فمفارقاته حوت معاني كثيرة أدّيت بألفاظ قليلة ساعده في ذلك مخزونه الثقافي اللغوي الذي يعلم أن البلاغة الإيجاز، يضاف إلى ذلك ما تتميز به المفارقات من كونها من أهم الفنون الإبداعية التي لا تحتاج إلى الكثير من الألفاظ.

لقد هيمنت المفارقة على وعي أسامة في كتاب الاعتبار، إذ نجد كثيراً من المواقف والحوادث تعتمد على المفارقة، ومن ذلك ما يحكيه عن خروف ينطح أسداً فيهزمه. يقول^(١):

«ثم شاهدت من الأسد أعجب من ذلك. كان بمدينة دمشق جرو أسد قد ربّاه سبّاع معه، حتى كبر وصار يطلب الخيل، وتأذى الناس منه، فأخرجوا خروفاً إلى قاعة الدار، ودخل السبّاع ومعه السبع، فساعة رآه الخروف حمل عليه فنطحه فانهزم السبع ونحن قد غلبنا الضحك عليه».

(١) نفسه، ١٨٩.

فالمفارقة تتولد من التباين بين موقفين متناقضين، وقلب الأوضاع، حتى لنجد الحروف - وهو الطرف الأضعف، يهزم الأسد - وهو الطرف الأقوى، وهنا تكمن المفارقة التي تثير السخرية والضحك، ولكنها في الآن ذاته تذكرنا بقصص قليلة ودمنة لابن المقفع وانتصار الأرنب على الأسد والقبرة على الفيل وتدلّ مرة أخرى على أنّ السرود القديمة تمتح من معين واحد ومن بيئة ثقافية تنزل الاعتبار منزلة محورية في عملية الكتابة الأدبية.

ومن ذلك ما يحكيه أسامة عن رجل جسيم مات من وخز الإبرة. يقول^(١):
«كان عندنا رجل من المصطنعة (الصناع) يقال له: عتاب، أجسّم ما يكون من الرجال وأطولهم. دخل بيته فاعتمد على يده، عند جلوسه، على ثوب بين يديه، كانت فيه إبرة، دخلت في راحته فمات منها، وبالله لقد كان يئن في المدينة فيسمع أنينه من الحصن لعظم خلّقه وجهارة صوته، يموت من إبرة، وهذا القشيري يدخل في صدره قنطارية تخرج من جنبه لا يصيبه شيء!».»

فالمفارقة تتولد هنا من هذا الموقف الغريب الذي ينطوي على تباين بين صورتين، أو هو موقف متناقض يبعث على التعجب والدهشة، واستخلاص العبرة. وتتجلى المفارقة في موقف آخر، حكاه أسامة، فقال^(٢):

«وطعن رجل كرديّ من أجنادنا، يقال له مياح، فارساً من الإفرنج، أدخل قطعة من الزرد في جوفه وقتله. ثم إنّ الإفرنج أغاروا علينا بعد أيام، ومياح قد تزوّج، وخرج وهو لا بس، وفوق درعه ثوب أحمر من ثياب العروس، قد تشهّر به، فطعنه فارس من الإفرنج فقتله «يا قرب مأتمه من العرس».

تبرز المفارقة هنا في التباين والتضاد بين الموت والعرس، إذ قدّر لهذا الجندي أن

(١) نفسه، ١٠٦.

(٢) نفسه، ١١٣.

يموت بطعنة انتقامية من الإفرنجي وهو في ثياب العرس وهو ما جعل أسامة يستدعي العظة والحكمة في قوله (يا قرب مأثم من العُرس). ومن هذه المواقف التي شاهدها أسامة ووجد فيها عظة وعبرة هذا الموقف الذي يحكيه فيقول:

«وشهدتُ يوماً وقد أغارت علينا خيل كفر طاب... فاجتاز جمعة النميري بواحد منهم فخطأ إليه وضربه على رأسه، وعلى رأسه قلنسوة، فقطعها، وشق جبهته وجرى منها الدم حتى نزح، وبقيت مثل فم السمكة مفتوحة، فلقيته، ونحن فيما نحن فيه من الإفرنج، فقلت له: يا أبا محمد ما تعصب جرحك! فقال: ما هذا وقت العصائب وشد الجراح! وكان لا يزال على وجهه خرقة سوداء، وهو رمد وفي عينيه عروق حمراء فلما أصابه ذلك الجرح وخرج منه الدم الكثير زال ما كان يشكوه من عينيه، ولم يعد يناله منهما رَمَدٌ ولا ألم» (فرما صحت الأجسام بالعلل) (١).

وتلك الحادثة تنطوي على مفارقة قدرية واضحة، لخصها أسامة بتضمين حكمة المتنبي «ربما صَحَّتْ الأجسام بالعلل» (٢).

ومن المفارقة ما ذكره أسامة بن منقذ من أنه تأذى من ضبع حين خرج مع والده إلى الصيد في جبل قريب من قلعة شيزر وتعجب أسامة من أن يهاجمه الضبع ويؤذيه ولا يقدر على دفع أذاه وقد شهد قتال الأسود في مواقف لا يحصيها، وقتل عدداً منها لم يشركه أحد في قتلها، فما ناله من شيء منها أذى، وتكمن المفارقة هنا في هذا التباين والتضاد في الموقف، حين تعجز قوة أسامة وفروسيته عن التصدي

(١) نفسه، ١٢٧ - ١٢٨.

(٢) عجز مطلع قصيدة للمتنبي في مديح سيف الدولة، وأوله "لعل عتبك محمود عواقبه"، ديوان المتنبي، ١: ٢٠٣.

للضبع. (١)

ومن المواقف التي ذكرها أسامة وتنطوي على مفارقة موقف النساء وهن يقاتلن في شيزر دفاعا عن الرجال وهو أمر يخالف المنطق الذي يفرض دفاع الرجال عن النساء. (٢)

ومن هذه المواقف التي تعتمد على المفارقة، ما سرده أسامة بن منقذ عن عجائب الإنسان الذي يخوض الغمرات ويركب الأخطار، ولا يرتاع قلبه من ذلك، ويخاف ما لا يخاف منه الصبيان ولا النسوان، وتلك مفارقة عجيبة، ويسوق أسامة بعض الشواهد التي تؤكد هذه المفارقة، فيقول إنه رأى عمه عز الدين، أبا العساكر، سلطان، وهو من أشجع أهله له المواقف المشهورة والطعنات المذكورة، وهو إذا رأى الفأرة تغيرت صورة وجهه، ولحقه كالزَّمْع (٣) من نظرها، وقام من الموضع الذي يراها فيه! ولعمري إنها لمفارقة عجيبة تتولد من التناقض والتباين والتضاد.

ويشير أسامة إلى موقف آخر في السياق ذاته، فيذكر أنه كان في غلمان عمه المذكور رجل شجاع، معروف بالشجاعة والإقدام، اسمه صندوق، يفرع من الحية حتى يخرج من عقله! فقال له والد أسامة وهو واقف بين يدي عمه: "يا صندوق! أنت رجل جيد، معروف بالشجاعة، ما تستحي تفرع من الحية؟ قال: يا مولاي! وأي شيء في هذا من العجب؟ في حمص رجل شجاع، بطل من الأبطال، يفرع من الفأرة ويموت، يعني مولاه عم أسامة نفسه". (٤)

إنّ هذه المفارقات ذات أثر كبير في حمل القارئ على الاعتبار، إذ تقدم له

(١) انظر: ابن منقذ، الاعتبار، ص ٢٣٥

(٢) انظر: نفسه، ص ٢٠٩

(٣) الزَّمْع: الارتعاد من شدة الدهشة. (اللسان: مادة: ز.م.ع)

(٤) انظر: ابن منقذ، الاعتبار، ص ٢٣٢ - ٢٣٣

مشاهد وحوادث تحفل بمفارقات الحياة بما تنطوي عليه من غرائب وتناقضات وتباين، فالقارئ يتعجب من مشهد الفارس المغوار الذي لا يهاب الأسود بينما يتأذى من ضبع، أو يخشى من الفأرة، ويتعجب وهو يرى الضعيف يخيف القوي، والشجاع يرتعد في بعض المواقف، ويتعجب كذلك من عجائب الأقدار التي تواجه شخصيات السيرة وتتحكم في مصائرهم، ومن ثمّ فإنّ مثل هذه المفارقات التي يحتشد بها كتاب (الاعتبار) إنّما تؤدي وظيفة خطيرة في تأصيل معنى الاعتبار، وحمل القارئ على الاعتبار بمثل هذه الأحداث العجائبيّة المتناقضة التي لا يملك إزاءها سوى الإذعان والاعتبار والتسليم بالمشيئة الإلهيّة، وتجعله أكثر قدرة على فهم طبيعة الحياة الدنيا والاتعاظ بما يجري فيها وتوجهه إلى كيفية مواجهتها.

وعلى هذا النحو تحتشد سيرة ابن منقذ بمثل هذه المواقف التي تنطوي على المفارقة وتمتلى بالعجائب والغرائب.

نتائج البحث

- ١- يُعَدُّ "كتاب الاعتبار" من أهم مؤلفات السير الذاتية وأبرزها في تاريخ الأدب العربي القديم.
- ٢- عرض أسامة في كتابه (الاعتبار) جوانب كثيرة من سيرة حياته وحياة مجتمعه بطريقة سردية ممتعة.
- ٣- يُعَدُّ "كتاب الاعتبار" وثيقة أدبية نادرة، فضلاً عن قيمته التاريخية والاجتماعية.
- ٤- أكد البحث تطابق عنوان الكتاب مع محتواه، كما أكد أن جميع الحوادث والمواقف التي سردها المؤلف في كتابه كانت ترمي إلى هدف واحد، هو استخلاص العبرة مما يرويه، ولذلك حرص المؤلف على أن ينتهي كل موقف أو حادث بعبرة أو عظة مستنتجة من هذا الموقف.
- ٥- كان للثقافة الدينية التي تلقاها أسامة بن منقذ أثر واضح في صياغة مفهوم الاعتبار، فكان القرآن الكريم بحكمه البالغة هو الركيزة الأساسية التي اعتمد عليها في رؤيته للاعتبار، فكان يعزو الحوادث إلى المشيئة الإلهية، وإلى حكمة الخالق في تصريف شؤون خلقه ومخلوقاته.
- ٦- استخلص أسامة بن منقذ من تجارب حياته عبثاً كثيرة، لعل أهمها أن ركوب أخطار الحروب، لا ينقص الأجل المكتوب، وأن الموت لا يقدره ركوب الخطر، ولا يؤخره شك الحذر، وأن في بقاء أسامة بعد طول عمره أوضح معبر.
- ٧- حركت الكتابة السردية في سيرة أسامة بن منقذ صورة القارئ الراغب في الاعتبار من الحوادث والوقائع، فقدمت للقارئ مائدة عامرة من التجارب التي تنطوي على عبر وعظات.

- ٨- أبرز البحث صلة الاعتبار الوثيقة بالذات الكاتبة، من خلال حضورها ومشاهداتها واستخلاصها العبر من الحوادث والوقائع.
- ٩- التأثير الكبير للمفارقات في كتاب الاعتبار من خلال الإثارة والمتعة ومباغطة القارئ وإثارة انتباهه وتحفيزه على التفكير والتأمل وإمتاعه انفعالياً، ومنح حس الاكتشاف للمواقف ونتائجها ومن خلال تقوية النص وإقامة التوازنات، وتوظيف السخرية وإيجاز العبارة وتكثيف المعنى.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

أولاً: المصادر:

أسامة بن منقذ الكنائي، "كتاب الاعتبار - مذكرات أسامة بن منقذ في الحروب الصليبية مع ملحق في أخبار الصالحين ومشاهد الصيد والقنص". وفق نصوصها وفصل فقرها وقدم لها وعلّق عليها د. عبد الكريم الأشتر، (ط ٢، بيروت، دمشق، عمان: المكتب الإسلامي، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م).

ثانياً: المراجع:

إبراهيم عبد الدايم يحيى، "الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث"، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٥ م)

إحسان عباس، "فن السيرة"، (بيروت: دار الثقافة، ١٩٥٩ م).

أسامة بن منقذ، "الديوان". تحقيق أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، (بيروت: منشورات بعلبكي).

الأصفهاني، عماد الدين بن محمد "خريدة القصر وجريدة العصر - قسم شعراء الشام". تحقيق شكري الفيصل، (دمشق: المطبعة الهاشمية).

آمنة عبد الكريم فاخوري، "الدعوة إلى الاعتبار - دراسة قرآنية"، (فلسطين، نابلس، جامعة النجاح الوطنية، ٢٠١٤ م).

براءة محمود السقرات، كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ - دراسة تحليلية"، (جامعة مؤتة، ٢٠١١ م).

حازم فارس علي أبو شارب، "فن السيرة في الأدب الأيوبي - كتاب الاعتبار أنموذجاً"، (جامعة الشرق الأوسط، ٢٠١٠ - ٢٠١١ م).

حسن بحراوي، "بنية الشكل الروائي"، (دمشق: المركز الثقافي العربي).

- حسن عباس، "أسامة بن منقذ - حياته وشعره"، (الإسكندرية: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م).
- الخليل بن أحمد الفراهيدي، "كتاب العين". تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، (ط١، دار الهلال).
- دي. سي. ميوبك، "المفارقة وصفاتها". ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، (ط١، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٣م).
- صالح بن الهادي رمضان، "الخطاب الأدبي وتحديات المنهج"، (ط١، أبها: منشورات النادي الأدبي ١٤٣١)
- عبد العزيز شرف، "أدب السيرة الذاتية"، (مصر: الشركة المصرية العالمية للنشر والتوزيع، ١٩٩٢م).
- عنترة، "ديوانه"، (ط. بيروت: دار صادر).
- فوزي سعد عيسى، "النص الشعري وآليات القراءة"، (ط٢، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٥م).
- الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب "بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز". تحقيق محمد علي النجار، (ط١، القاهرة: لجنة إحياء التراث الإسلامي).
- كمال الدين، عمر بن أحمد ابن العديم، "بغية الطلب في تاريخ حلب". تحقيق سهيل زكار، (ط١، بيروت: دار الفكر).
- ماهر حسن فهمي، "السيرة تاريخ وفن"، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٠م).
- المتنبي، "ديوانه". تحقيق عبد الرحمن البرقوقي، (بيروت، ١٩٨٣م).
- محمد بن عبد الرؤوف، "التوقيف على مهمات التعريف". تحقيق محمد رضوان الداية، (ط١، بيروت، دار الفكر العربي، ١٤١٠هـ).

وظيفة الاعتبار في كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ، سعيد بن عبد الله القرني

محمد فكري الجزار، "العنوان وسيموطيقا الاتصال الأدبي"، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م).

ابن منظور، "لسان العرب"، (ط٣، بيروت، دار صادر، ١٤١٤هـ).

ميخائيل باختين، "أشكال الزمان والمكان في الرواية"، (دمشق: منشورات وزارة الثقافة).

يحيى عبد الدايم، "الترجمة الذاتية في الأدب الحديث"، (ط٤، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية).

Bibliography

The Noble Quran.

Primary Sources:

Osama bin Munqith al-Kinani, "The Book of Consideration – Memoirs of Osama bin Munqidh in the Crusades with an appendix in the news of the righteous and scenes of hunting and shooting". With introduction, comments and organization by Dr. Abdul Karim Al-Ashtar, (2nd Edition, Beirut, Damascus & Amman: The Islamic Office, 1424 AH - 2003 AD).

References:

Ibrahim Abdel Dayem Yahya, "**Self-Translation in Modern Arabic Literature**", (Cairo: Egyptian Renaissance Library, 1975)

Ihsan Abbas, "**The Art of Biography**", (Beirut: Dar Al-Thaqafa, 1959).

Osama bin Munqidh, "**Al-Diwan (The collection)**". Edited by Ahmed Ahmed Badawi and Hamid Abdel Majeed, (Beirut: Baalbaki Publications).

al-Aṣḥānī, 'Imād al-Dīn ibn Muḥammad "Kharīdat al-qasr wa-jarīdat al-‘aṣr, Qism shu‘arā’ al-Shām". taḥqīq Shukrī Fayṣal, al-‘Irāq, al-Majma‘ al-‘Ilmī al-‘Irāqī).

Amna Abdel Karim Fakhoury, "**The Call for Consideration – A Quranic Study**", (Palestine, Nablus, An-Najah National University, 2014).

Bara'a Mahmoud Al-Soqrat, "**The Book of Consideration by Osama bin Munqidh - An Analytical Study**", (Mutah University, 2011).

Hazem Fares Ali Abu Sharb, "**The Art of Biography in Ayyubid Literature – The Book of Consideration as a Model**", (Middle East University, 2019-2020).

Hassan Bahrawi, "**The Structure of the Narrative Form**", (Damascus: Arab Cultural Center).

Hassan Abbas, "**Osama bin Munqidh - His Life and Poetry**", (Alexandria: Egyptian General Book Authority, 1980).

Al-Khalil bin Ahmed Al-Farahidi, "**The Book of Letter Ayin (ع)**". Verified by: Dr. Mahdi Makhzoumi & Dr. Ibrahim Al-Samarrai, (1st Edition, Dar Al-Hilal).

D. C. Miohec, "**Paradox and Its Qualities**". Translated by: Abdul Wahed Lulu'a, (1st Edition, Beirut: Arab Institute for Studies and

- Publishing, 1993).
- Saleh bin Al-Hadi Ramadan, "**Literary Discourse and the Challenges of the Curriculum**", (1st Edition, Abha: Literary Club Publications 1431)
- Abdel Aziz Sharaf, "**Biographical Literature**", (Egypt: Egyptian International Company for Publishing and Distribution, 1992).
- Antara, "**Collection of Poems**", (Beirut edition: Dar Sader).
- Fawzi Saad Issa, "**The Poetic Text and Reading Techniques**", (2nd Edition, Alexandria: University Knowledge House, 2005).
- Al-Firouzabadi, "**Insights of People with Discernment on the Intricacies of the Dignified Book**". Verified by: Muhammad Ali Al-Najjar, (1st Edition, Cairo: Committee for the Revival of Islamic Heritage).
- Kamal al-Din ibn Ahmad ibn al-Adim, "**Satisfying the Demand in the History of Aleppo**". Verified by: Suhail Zakkar, (1st Edition, Beirut: Dar Al-Fikr).
- Maher Hassan Fahmy, "**Biography: History and Art**", (Cairo: Egyptian Renaissance Library, 1970).
- Al-Mutanabbi, "**Collection of Poems**". Verified by: Abd al-Rahman al-Barqouqi (Beirut, 1983).
- Mohammed bin Abd al-Raouf, "**Altawqif Ala Muhumat Altareef (Hold of the Work of Definition)**." Verified by: Muhammad Radwan Al-Daya, (1st Edition, Beirut, Dar Al-Fikr Al-Arabi, 1410 AH).
- Mohamed Fikri El-Gazzar, "**Title and the Semiotics of Literary Communication**", (Cairo: Egyptian General Book Organization, 1998).
- Ibn Manzur, "**Lisan al-Arab (Arabic Tongue)**", (3rd Edition, Beirut, Dar Sader, 1414 AH).
- Mikhail Bakhtin, "**Forms of Time and Space in the Novel**", (Damascus: Ministry of Culture Publications).
- Yehia Abdel Dayem, "**Self-Translation in Modern Literature**", (4th Edition, Cairo: Egyptian Renaissance Library).





الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
ISLAMIC UNIVERSITY OF MADINAH

Journal of

Arabic Language and Literature

Vol : 9

Jul - Sep 2023